كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 99 - الأربعاء 1 تشرين الثاني (نوفمبر) 2006

جبرا إبراهيم جبرا

صيادون في شارع ضيق

رسوم حسن موسى





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

الذكرى العاشرة لإنطلاقة «كتاب في جريدة»
الذكرى الستون لتأسيس «اليونسكو»

في إطار احتفالات الذكرى الستين لتأسيس اليونسكو، والذكرى العاشرة لانطلاقة «كتاب في جريدة»، وبدعوة من النائب غسان تويني رئيس تحرير صحيفة النهار اللبنانية، أقيم في جريدة النهار احتفالٌ بحضور السيد كويشيرو ماتسورا مدير عام منظمة اليونسكو، والسيد طارق متري وزير الثقافة اللبناني، والسيد مروان حمادة وزير الاتصالات والآنسة نايلة جبران تويني، والدكتور أحمد الصياد نائب مدير عام اليونسكو للشؤون الخارجية والتعاون والدكتور عبد المنعم عثمان مدير مكتب اليونسكو الاقليمي في بيروت وعدد من الشخصيات الثقافية والإعلامية والتربوية،

ولأسباب خارجة عن إرادته، لم يتمكن من الحضور معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر، المبعوث الخاص للمدير العام لليونسكو للتربية والديمقراطية والتسامح، راعي «كتاب في جريدة». وقد مثله في هذه المناسبة الشاعر شوقي عبدالأمير.

فيما يلي نص كلمة كل من المدير العام ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر.

كلمة السيد كويشيرو ماتسورا:



السيد الوزير،

السيد المدير،

أصحاب السعادة،

السيدات والسادة،

إن التظاهرة التي تجمعنا هذا اليوم في مقر صحيفة «النهار» بمناسبة الذكرى الستين لإنشاء اليونسكو هي بالنسبة لي مصدرُ إرتياح كبير وعلى أكثرَ من صعيد.
أوّلاً أنها تقام في بيروت لتشّهد بالطبيعة التي أردت أن أعطيها لإحياء هذه الذكرى: أي أن يُحتفى بها خارج مقر اليونسكو وحتى خارج مواقع اليونسكو بالمعنى العريض للكلمة.
ولهذا أودّ أن أشكركم أيها السيد مدير صحيفة النهار لسماحكم بالقيام بهذه الذكرى في هذا الإطار.
إن مصدر ارتياحي الثاني هو أن هذا الاحتفال يقام حول كتاب. كيف يمكن في بلاد بيبلوس أن لا نشير إلى القيمة الجوهريّة للكتابة في العلاقات بين البشر ومن أجل بناء السلام؟ إن الكتاب الذي نحتفي به اليوم يجمع التأريخ الثقافي لليونسكو أي أنه يقع في قلب وجودنا وهو ما أطلقت عليه إسم «الشعلة الخفيّة».
يضم هذا الكتاب الذي طلبت من الفيلسوف روجيه بول دروا تحضيرَه مُنتخبات واسعةً من نُصوص واستشهادات من أرشيف اليونسكو تؤكد إستمراريةَ استلهام مُنظمتنا منذ تأسيسها وتعددية المشاكل التي واجهتها.
يتوجب علينا اليومَ أن نُحدد أين تقع الرهاناتُ وما هي التحدّيات. وعلينا، في خضم المهمة التي تقع على عاتقنا، أن نحدد الاسبقيات والميادين ذات الطابع الاستراتيجي.
بعد الانتهاء مباشرة من الحرب، شكلت المعركةُ الصارمةُ من أجل إجتثاث العنصرية محوراً كبيراً سمح لليونسكو بالمساهمة بشكل حاسم بالقيام بتحول جذري للأخلاقيات. تلى ذلك التخطيط للنظم التربوية لتفرض نفسها كرهان جوهري بحيث احتلت اليونسكو موقع الصدارة في هذا الميدان. كما أن بُروزَ مفهوم التراث المشترك للانسانية كرد فعل للمخاطر التي كانت تتهدد في سنوات السبعين معابد النوبة قد شكلت مساهمة أساسيّة لليونسكو من أجل رؤية جديدة للعالم بحيث أصبحَ قَرنُنا يُدركُ إلى أي مدى صارت هذه الرؤية حيوية من أجل مستقبل الإنسانية.
وأنا شخصياً إقترحت أن يكون التعليم للجميع والمياه وأخلاقيات العلوم والتكنولوجيا والتنوع الثقافي وبناء مجتمعات المعرفة القائمة على حرية إنتقال الأفكار، من أولى أسبقيات اليونسكو لعصرنا هذا وقد أقرّ المؤتمر العام هذا الاختيار.
إن النظرُ من بعيد إلى هذا الكتاب يُظهر أن اليونسكو قد نهجت على الدوام نوعيَن من المبادرات: الاستباقُ من جهة والأمانة للاستلهام الأساسي الثابت في رسالة اليونسكو والذي يهدف إلى «رفع حصون السلام في عقول البشر» من جهة أخرى.
هذه المبادئ تمنحني في الواقع السبب الثالث لإحساسي بالسعادة الكبيرة في هذا الاحتفال الذي يجمعنا حيث أنه يجري في مقر صحيفة يوميّة كبرى.
في الواقع إن أوّل المبادئ التي أقرها الميثاق التأسيسي هي «حريّة إنتقال الأفكار بالنص والصورة». وهو يشكل منطلقاً لكل المبادئ الأخرى وفي نفس الوقت التعبير الأسمى عن «المثال الديمقراطي للكرامة والمساواة وإحترام الكائن البشري».

إن حرية وتعددية الصحافة هما الشرطان الضروريان لممارسة حق الكرامة الذي يُؤمِّنُ لكل شخص «حريّةٌ البحث عن الحقيقة»، الأمر الذي يفترضُ توفّرَ التعددية والمستوى الرفيع لمصادر المعلومات.
أودُّ في هذا الإطار أن أحيي وبكُلِّ حماس الصحفيين اللبنانيين اللذين قدّما حياتيهما وهما يمارسان عملهما الصحفي؛ سمير قصير وجبران تويني. لقد كانا كلاهما مناضلين شديدي المراس من أجل حرية التعبير والتفكير التي كم هي ضرورية من أجل تقدم الإنسانية. إعلموا أنني أشارك بكل مشاعري في الحداد الذي تكابدُه صحيفة «النهار» التي تعرضت مرّتين خلال شهور لضربة قاسية ومن خلالها لبنان بأكمله.
وأهنّئ نفسي بأن جائزة «اليونسكو غويرمو كانو» لحرية التعبير قد منحت هذه السنة إلى مواطنة لبنانية كبيرة؛ وهي الصحفيّة مي شدياق التي تعرّضت هي الأخرى لمحاولة إغتيال. سأمنحها رسمياً بعد بضعة أيام في سيريلانكا هذه الجائزة، ليتمكن هذا الامتياز الدولي من أن يحمل، باسم كل ضحايا الجرائم البشعة، شعلة الحرية الأساسية والحيوية لمستقبل الإنسانية.
السيد الوزير، السيد المدير
بعد إختيار منتخبات من هذا الكتاب «الانسانية في طور البناء» ونشرها في «كتاب في جريدة» وهو المشروع الذي قدّمت له اليونسكو دعمها منذ انطلاقته فإن الـ91 صحيفة المشاركة في برنامج عمله تكون قد نشرت صدى اليونسكو بين الملايين من القراء لتسهم عبر ذلك بأن تضع بين أيدي كل المواطنين والقراء ما نريد أن نقدّمه في الذكرى الستين ولهذا فأنا أشكرهم من كل قلبي.
واليوم فإن نشر الكتاب بكامله في اللغة العربية هو ما يمكن أن يحدث بفضل مبادرتكم أيّها السيد المدير إنطلاقاً من الترجمة التي تمّت تحت رعاية اليونسكو وبمبادرة منها. لقد كنت آمل بحرارة أن ينتقل هذا الكتاب الغني بالأفكار وبالمعلومات إلى أيدي قراء اللغة العربية كما هو الحال في اللغة الفرنسية والانكليزية. وهذا ما سيكون أمراً منجزاً خلال أشهر بفضل دعم مؤسسة «النهار» بالتنسيق مع مكتبنا في بيروت. إنني سعيد جداً وأشكر السيد شوقي عبدالأمير المندوب الدائم المساعد للعراق لدى اليونسكو الذي لم يدّخر جهداً لانجاز هذا المشروع بكامله والذي كانت فكرته منذ البداية.
يُعلّمنا هذا الكتاب أن الانسانية بجوهرها ما زالت في طور البناء وهي ليست منجزةً ولا متحققةً قط. ولذا فإن من واجبنا العمل من أجل ذلك باستمرار وأنه لشرف لليونسكو أن تشجع وتبعث الأمل في هذه المهمة.

أشكركم

كلمة الشيخ محمد بن عيسى الجابر

المبعوث الخاص للمدير العام لليونسكو للتربية والتسامح والديمقراطية
راعي «كتاب في جريدة»:



السيّد مدير عام اليونسكو

السيد وزير الثقافة

السيد رئيس التحرير

إنّها مناسبةٌ تجمع عدَّة مُناسبات وكُلُّها مُحمّلةٌ بالرموز والدلالات الكبيرةْ،
فهي زيارةُ السيد كَويشيرو ماتسًورا مُدير عام منظمةَ اليونسكوَ إلى بيروتَ عاصمة الثقافة العربيّة الدائمة،
وهي الذكرى الستُّون لتأسيس اليونسكوَ الحضَن الدَولِيِّ الأرحب لبناء الإنسان والسَلامْ
وهي الذكرى العاشرةُ لإنطلاقةَ «كتاب في جريدة»، أكبرَ مشروع ثَقافيٍّ عربي مُشتَرك من بيروتَ المكافحة دائماً من أجل مُجتمع مُتحرّر تعدّدي وديمقراطي تَتَعَايشُ فيه كلُ أشكال الطيف الحَضاريِّ البشريِّ عرقيًّا ودينيًّا، تَحتَ سَقَف صحيفة «النَهار»، التي أًحتفلتْ هي الأخرى بالذكرى السبعَين لتأسيسَها قبلَ أعوام، منبر الكلمة الحرّة التي قدَّمتْ من أجلَه قبل بضَعة شهور شهيدين من أبنائها (جبران تويني وسمير قصير) الذين أفاضوا دماءَهم حبراً وكلمَات أكثرَ إشعاعاً وخُلوَداً،
وها هي مَنظمةُ اليَونسكو مُمثلةٌ بالسيد المدير العام تقدّم جائزة حرية الَصحافة العَالمية لهذا العام 2006 للصحفية التلفزيونية اللبنانية التي تُعرف اليوم بـ «الشهيدة الحيّة مي شدياق» لتُؤكّدَ كما في كُلِّ مرّة وقوفَها دائماً وأبداً في صَفِّ أحرار العالم من أجل بناء إنسانية أفضلَ سعياً وراءَ المبادئ السامية التي تحملُها اليونسكو، واستكمالاً للمسيرةِ الإنسانية الطوَيلة من أجل تربيَة جَيل قائمٍ على المعرفة والديمقراطية والتسامَح...
إن إجتمَاعاً كهذاَ لا يمكّن إلاّ أن يكُونَ شُعلةً مُكتنزةً بالنور والَعطاء والأمل...
وبهذه المناسبة فإنني أودُّ أن أُعبّرَ لكم عن سعادتي البالغَة بالسيرَ يداً بيد مع منظمة اليونسكو لدعم كُلِّ مشاريعها التنورية والإنسانية في مّجتمعنا العربي من مُحيطه إلى خَليجه وأنْ أضَعَ نفسَي في خَدمة المُثلَ الانسانية العُلياَ التي من أجَلها شُيّدتَ منظمةُ اليونسكو لأنَني أُؤمنُ بأن لهذه المَنظمة دوراً كبيراً بين ظَهرانينا وأننا اَليومَ فَي كُلّ الدوَل العربية بحاجة إلىَ حُضورها ومشارَكَتها في جَميع ميادين إختصاصَها...
ومن أجلَ هذا سبقَ لي أنْ وَقّعتُ برُوتوَكولاً طموحاً مع السيد كويشيرو ماتسورا في 2002 من أجل تَطوير، تحديث وإصلاح النظام التَعليميِّ في الشرق الأوسط والذي بدأ فعلاً تنفيذَهُ بما يَسمحُ للنهوض بمشاريعَ تَنموية كُبرَى وتشَجيع ثقافَة السلامَ وبناء الَديمقراطية بالإضافَة إلى التبنّي الكُلّي لمشروعِ اليونسكو الرائد والذي كَان يمرٌّ بفترة عًصيبة «كتاب فَي جريدَة» وهو اليومَ يُدركُ سنَتهٌ العاشرةَ تَحتَ رعايتنا ودعمنا.
إنّ «كتاب في جريدة» هو الخيمةُ العربيَّةُ الكُبرى التي تَجمعُ القارئَ العربي في كُل مكان وقد أصبحَ اليوم بعدَ عشرة سنوات من تأسيسه صَرحاً ثقافياً في حاضرتنا العربيّة وجسراً لا بُدّ منهُ بين مبدعي الكلمة وقُرّائها، من أجل نشرِ المعرفة وبناءَ الإنسانَ العربي في عًصر حوار الحضارات والعَولمة.
وأودُّ في الختام أن أقَولَ مع السيَد المدير العام في كلمته بمناسبة الذكرى الستين لليونسكو:
«إنّ علينا أن نُركّزَ إهتمامَنا على الإلهام الأخلاقي لليونسَكو والحوار والتعاون وإرساء المعايير وتَناسُق تطورها وسُبل رقيِّها... من أجل إعادة استكشاف الشُعلة الخفيَة لليونسكو» فالإنسانية حقّاً – كما هَو عنوانَ كتابنا – هي دائَماً في طَور البناءَ وأن دورَ اليونسكو هوَ المشاركةُ فَي هذهِ المهمةِ الهائلةِ وإنه لَيشُرّفني أن أُقدِّمَ مُساهمَتي المتواضعَة في دعمِ مَسيرتهاَ النبيلَة هذه.



صيادون في شارع ضيق

جبرا إبراهيم جبرا

محمد مظلوم

ولد جبرا إبراهيم جبرا في بيت لحم بفلسطين عام 1920, حيث بدأ مراحل دراسته الابتدائية فيها، ثم أكمل تعليمه في القدس.
التحق بجامعة كامبردج، وحصل منها على شهادة البكالوريوس ثم الماجستير في الأدب الإنكليزي.
وبعد عام النكبة 1948 غادر إلى بغداد لتدريس الأدب الانكليزي في الكليات والمعاهد العراقية.
أسهم خلال وجوده في العراق، بشكل فاعل في الحركات التحديثية التي انطلقت من العراق، في الشعر والفن التشكيلي خاصة، كما أسهم مع الفنان الراحل جواد سليم في تأسيس «جماعة بغداد» وهي أهم حركات الفن التشكيلي في العراق.
له عشرات الكتب في حقول المعرفة المختلفة كالرواية والقصة القصيرة والشعر والنقد الأدبي والفني والترجمة، إضافة إلى ممارسته للفن التشكيلي.
من أعماله الروائية الأخرى:
«البحث عن وليد مسعود» و «يوميات سراب عثمان» و«السفينة »
ومن أعماله الشعرية «تموز في المدينة» و«لوعة شمس» و«المدار المغلق»
ومن ترجماته التي تجاوزت الثلاثين كتاباً تعد ترجمته لعدد من أعمال شكسبير واحدة من الآثار المهمة في مجال الترجمة.
توقف عطاء أبي سدير، في الثاني عشر من شهر كانون الأولى 1994, بعد عام واحد من رحيل زوجته ورفيقة حياته «لميعة العسكري» حيث دفن إلى جانبها في أحدى مقابر بغداد.

«صيادون في شارع ضيق» رواية سيرة بامتياز، فعدا عن التفاصيل ذات البعد الشخصي الواضح الذي تنطوي عليه شخصية بطلها وساردها «جميل فران» التي تكاد تتطابق مع التجربة الحياتية لجبرا مما يضعها في نقطة مركزية مركبة تتمثل في : شخصية السارد المؤلف، فإن أمكنة بغداد وشخصياتها في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات تشكل العصب الأساسي الآخر في هذه السيرة. إنها سيرة شخص غريب في المدينة، أو سيرة مدينة غريبة عن شخوصها وقاسية عليهم.
الصيادون هم هذه الشخصيات المتجاورة ظاهرياً حد التلازم، لكن دون مواجهة حقيقية وعميقة فهي في الواقع فرائس لفضاء هذه التناقضات الاجتماعية، أما الشارع فهو شارع الرشيد حيث يستقيم فيه المسير ظاهرياً بمحاذاة دجلة، بينما ينطوي في أزقته الخلفية على كتل هائلة ومعزولة من هذه التناقضات، ربما لهذا أخذت الرواية صيغة السارد الواحد، وشكل المونولوغ المتصل بطبيعة مثل هذا المستوى من السرد، ليتسنى لها التناسب مع هذه الاستقامة في المسير اليومي بشارع طويل وضيق من جهة، ولتتسع في الجهة المقابلة لاستيعاب المنعطفات الخفية لحياة شخصياته فتحتويها، وليبوح السارد بما لا يعلنه شارع الرشيد نفسه، وجبرا مولع بسرد حكايته مع المدينة من شوارعها لنتذكر له حكايته الشخصية اللاحقة في كتابه الآخر عن بغداد «شارع الأميرات»

سيرة «جميل فران» هنا متعلقة بالكيمياء المتولدة عن صدمة المكان ودوي ارتطامه في الذاكرة، لتلتقي إلى حد بعيد مع سيرة المدينة وهي تضطرب في تحولها من حقبة إلى أخرى.
صحيح إن الرواية تعتمد على تقنية السرد المنفرد عبر أحادية صوت الراوي، لكن الصور الدائرية وهي تتحرك في أعماق السارد، وكذلك الأخيلة السائحة في المدينة، تشحن المستوى السردي بتعددية داخلية وتمنحه كثافة درامية ساطعة، لتعيد تعريف حياة البطل القادم من أمكنة القسوة الجسدية والاقتلاع الروحي، مثلما تعيد تكييف ذاكرته إزاء قسوة بنكهة أخرى وشعور بالاقتلاع من نمط مختلف.
ولا تكاد الرواية تخرج عن هذا المسار التراكمي إلا عندما يفتح جبرا صفحات مجهولة كتبها صديقه في المكان الغريب «عدنان» أو رسالة اعترافية كتبتها «سلافة» ليمنح الرواية جرعة من نبرة التفاعل السردي، وشيئاً من جدل الصوت الآخر المثير والمشارك في صياغة الحدث من زاوية أخرى.
يحاول «جميل فران» اكتشاف المكان ليس بعينيه وبمجمل حواسه الأخرى فحسب، وإنما من خلال وضع الشخصيات الأخرى في شباك صيده المنصوبة على الدوام في شارع الرشيد ومنعطفاته الخلفية، كاشفاً عن طبقات متناقضة ومضمرة من وجوه المدينة بتفاوت طبقاتها الاجتماعية : المجتمع البغدادي المخملي والقاع السائب المهمش، بيد أن «جميل فران» نفسه يبدو قلقاً وممزقاً في علاقته المتأرجحة ما بين الطيفين، بين العوالم المستترة خلف الليل الملون بأضواء الحفلات المخملية، وذلك النهار المكشوف والعاري المتكدس عبر شارع الرشيد ومقاهيه وباراته الرخيصة وضجيج ساعاته ومواسمه واضطراباته السياسية.
ربما ثمة من يرى في الرواية، نوعاً من نزعات الآداب الاستشراقية من أدب رحلات ويوميات سياحية، فهي رواية مكتوبة باللغة الإنكليزية أصلاً، وهي تلخص حياة البطل القادم إلى بغداد ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ليرى في صورتها «المريضة» مجتمعاً لا يزال حائراً بين إرث الصحراء والأرياف البعيدة في الذاكرة والتقاليد، والتقاطعات الجديدة للشوارع، ونمط الحياة المدنية الذي بدأ يتشكل في المدينة.
هذا التشكيل لصورة المدينة وإن بدا ذا منحى طبقي، إلا إنه يحمل في سياقه العام بؤرة صراع ذاتي وانسلاخ وانفصال داخليين، أسهم العمق الفكري الذي اعتمده جبرا في هذه الرواية في أن يجعل مستوى نقده عضوياً وجذرياً وفاعلاً.
قصة حب ملتبسة وعلاقات متداخلة، وتقاليد هشة يلجأ رموزها نحو المداخل السرية لإدامتها بينما تنعطف كتلة الأحداث بتناقضاتها غير المرئية على الجميع لتصيبهم بهول الوقوف أمام الحقيقة التي يضعهم السارد الغريب في مواجهتها دفعة واحدة.
لعل أهم توصيف يمكن له أن يوجز راوية جبرا «صيادون في شارع ضيق» إنها رواية مؤسسة لأدب الشتات الفلسطيني، حتى وهي مكتوبة بلغة أخرى.

* صدرت الرواية باللغة الانكليزية عام 1960 بعنوان أصلي هو "Hunters in a Narrow Street" اعتمدت هنا ترجمة الدكتور محمد عصفور بما يتناسب وطبيعة «كتاب في جريدة»

حسن موسى

مواليد النهود - السودان سنة .1951 تخرّج من كلية الفنون في الخرطوم قبل أن يهاجر إلى فرنسا سنة .1977 عُرضت أعماله ضمن معارض عالمية حول الفن الإفريقي المعاصر في غاليري White Chapel في كندا سنة .1995
دُعي للمشاركة في بينال فينا سنة ,1999 كما شارك في معرض زمحترفات عربيةس ضمن نشاطات القمة الفرنكوفونية في بيروت 21002 وفي معرض زاللوحة العربيةس ضمن فعاليات قمة البنك الدولي في دبي 2003.
شارك أيضاً في معرض «أفريكا ريمكس» في المانيا، إنكلترا وفرنسا 2004 - 2007 بالإضافة إلى مشاركته في معرض «النظر بالاتجاهين» الذي ينظمه متحف الفن الافريقي في نيويورك 2003 - 2006 ومعرض «الغرب كما يراه الشرق» في برشلونة (2005).
له في مجال كتب الاطفال تجربة خاصة، يعيش ويعمل في جنوب فرنسا.

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

تخطيط الشعار
سمير الصايغ

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه. محامون»

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الهيئة الاستشارية
أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سيد ياسين
عبد الله الغذامي
عبد الله يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

الصحف الشريكة
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الحوار نواكشوط
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الصحافة الخرطوم
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول

كتاب في جريدة
عدد رقم 99
(1 تشرين الثاني 2006)

ص.ب 1460-11. بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



صيادون في شارع ضيق

جبرا إبراهيم جبرا

– ١ –

عندما وصلت إلى بغداد كان لديّ ستة عشر ديناراً فقط، وكان مقدّرا لهذا المبلغ أن يكفيني فترة أسبوعين. وقد ثبت فيما بعد أن ذلك التقدير كان مبالغاً في التفاؤل، إذ إن السلفة الأولى على راتبي لم تدفع إلاّ بعد مرور ستة أسابيع. بل إن ستة عشر ديناراً ليست بالمبلغ الكبير بالنسبة لغريب في مدينة كبيرة حتى لفترة أسبوعين. لذا فكرت بوجوب الحيطة في مصروفاتي، وبالذهاب إلى فندق رخيص.

طلبت من سائق التكسي أن يأخذني إلى فندق جيد، ففعل. أخذني إلى «فندق شهرزاد» الذي كانت له واجهة لطيفة تتقدمها حديقة. فتركت متاعي في السيارة وذهبت إلى منضدة الاستقبال. كان الجو حاراً جداً في الشارع، ولكن ما إن دخلت ردهة الفندق حتى هبّت على وجهي نسمة باردة رطبة، فساورتني على الفور بعض المخاوف فيما يتعلق بالأجور، الأمر الذي أكده لي الموكل بالاستقبال.

لم يدهش السائق حين عدت إلى سيارته ثانية، وقلت: «أجوره مرتفعة جداً. خذني إلى فندق جيد، ولكن أرخص». فقال: «أمرك يا سيدي». ومضى. وبعد حوالي مائة ياردة استدار إلى شارع جانبيّ ووقف. فنزلت من السيارة ورأيت باباً لم يكنس خلال عامٍ على الأقل. فعدت للسائق وقلت له وأنا أدخل السيارة مرة أخرى: «هذا قذر. خذني إلى أحسن منه».

فقال حين تحركت السيارة: زإنه فندق جيد. وأنا آتي بالكثيرين إليه».

ثم ساق السيارة لبضعة دقائق أخرى وأنزلني في مدخل فندق يشبه المدخل السابق شبهاً كبيراً، وقال ناصحاً: «إسمع يا سيد. إما أن تذهب إلى «شهرزاد» وإما إلى واحد من هذه الفنادق. ليس ثمة شيء وسط. ستدفع ١٥٠ فلساً فقط ههنا».

ونزل من السيارة بحركة قطعية، ووضع أمتعتي على الرصيف، وصعد معي على درج شديد الانحدار إلى منضدة الاستقبال.

وأفزعني أن يستقبلني رجل حافي القدمين لم يحلق منذ عدة أيام، ابتسم للسائق أولاً ثم لي.

قال السائق: «أتيتك بصديق يا شكري، فاعتنِ به عناية حسنة».

فأجاب شكري: «بالطبع. أين الأمتعة»؟

وجيء بالأمتعة في دقائق، وطلب السائق ديناراً فأعطيته نصف دينار، ورغم احتجاجه فإنه لم يكن مستاءً. ولربما كان ربع دينار يكفيه.

قلت لشكري: «والآن قدني إلى غرفتي رجاء». كانت ليلة السفر عبر الصحراء ليلة غبراء، مما جعلني بحاجة إلى حمامٍ وإلى وجبة طعام جيدة. أخذني شكري إلى غرفة فيها سريران، ولكنه أكد لي أن السرير الآخر لن يستعمله أي «مسافر» آخر طيلة مكوثي فيها. كان الضيوف يدعون «مسافرينس»، وكان شكري حين يشير إلى الفندق يدعوه «المسافر خانة».

قال: «هناك الكثير من المسافر خانات في هذه المنطقة، ولكن قليلاً منها توفر لك الراحة التي ستجدها هنا».

وحين تُرِكْتُ لوحدي اكتشفت، لفزعي، أن الشراشف كانت مستعملة. بوِسعي أن أحتمل الكثير من أشكال الفقر، أما النوم في شراشف استعملها «مسافر» آخر فأمر أكثر مما يطيقه احتمالي. لذا هرعت عائداً إلى شكري بقدميه الحافيتين، فوجدته يتحدث مع امرأة سمراء ذات عينين مثقلتين بالكحل، ترتدي عباءة سوداء جميلة تنحدر من رأسها حتى القدم.

قلت لشكري: «هلاّ بدلت الشراشف»؟

فقال: «آسف يا أستاذ، لا أستطيع إبدالها اليوم».

– «ولكنها مستعملة».

– «مرة واحدة، في الليلة الماضية. مجموعة الشراشف الجديدة تعود من الغسيل غدا».

– «هل تتوقع مني أن أستعمل تلك الشراشف القذرة»؟

– «ليست قذرة جداً يا سيدي».

فقالت له الفتاة ذات العباءة السوداء أن يبدلها، ولكنه أقسم بالله أنه لا يستطيع. ودُقّ في هذه الأثناء جرس، فاندسَّ شكري في إحدى الغرف.

سألتني الفتاة: «غريب»؟

– «نعم».

– «من دمشق»؟

– «لا. من القدس».

– «لا تقلق. نحن نعتني كثيراً بالغرباء».

كان لها سن ذهبية في فكها الأعلى تلتمع كلما فتحت فمها.

قلت لها: «شكرا». وعدت إلى غرفتي. وهناك قرعت الجرس، وطلبت الأمتعة فجاء بها صبيّ. وأدركت أن عليّ أن أجد محلاً آخر أسكن فيه على الفور. كانت تنبعث من ذلك المكان المظلم، وسط إشعاع شهر تشرين الأول، رائحة الانحطاط الذي تتصف به الليالي الملوثة والنهارات المتلصصة. وتصورت حالة غرفة الحمام في مكان كئيب كذلك. لذا، وقبل أن آخذ الحمام الذي كنت بحاجة ماسة إليه، خرجت وأقفلت الباب، والتقيت في طريقي إلى الدرج الشديد الانحدار بالفتاة ذات السنّ الذهبية وهي واقفة إزاء المنضدة. كان لها أن تكون تمثالاً من الأبنوس أو «عذراء» بلا طفل، أو عشتار بابل: فقد كان لوجهها من الجمود، ولوقفتها من السكون، ولعينيها من الاتساع والسواد ما أثار بي ألف صورة وإحساس. ونزلت الدرج، وعند المدخل نظرت إلى الأعلى لأرى اسم الفندق. كان الاسم «ملكة سبأ» مكتوباً بالعربية والانكليزية على قطعة صفراء. ما الذي كان الملك سليمان سيقول لو رآه؟

كانت الأعمدة قائمة على جانبي الشارع في رواقين لا ينتهيان. وهي بمظهرها السقيم وعدم انتظامها تمتد عنيدة على طول الطريق، تظلل دكاكين حادة الزوايا يجلس أصحابها في أبوابها يشربون الشاي في أقداح زجاجية صغيرة، والناس يمشون ببخترة يوحي بالعباءة العربية التي كان قليل منهم فقط يرتدونها. لقد أدهشتني الوجوه الغريبة السمراء تشوّهها الخدوش أو بثور الجدري، أو تحفرها «أُخْتٌ» رهيبة تأكل الجلد فوق الخد أو في منتصف الجبين أو على جانب الأنف: أشبه بطبقة عميقة من زهرة شرسة. ولقد سمعت بعد أيام شاباً يعبر عن شوقه إلى أن زيراكم قبلاته على تلك البشرة الرائعة التي تزيّن فك حبيبته»!

كان الشارع بألوانه وتصميمه المضطرب يبدو مرقعاً، كما لو أنه بني ارتجالاً ؟ فالأعمدة لا تبقى متشابهة لمسافة طويلة. ورأيت شرطيّاً طويلاً أسمر، له وجه نحيل، يقف بجانب أحد الأعمدة. فسألته: «أين الشارع الرئيسي من فضلك»؟

– «هذا هو الشارع الرئيسي!» قال ذلك بلهجة الدّهشة، كما لو أنه يريد أن يقول: «ألا تظنه يعجبك»؟

وأخذت أبحث عن اللافتات التي تحمل أسماء الفنادق، فلاح لي على الفور صف طويل منها: «فندق الزهور»، «فندق السعادة»، «فندق زهرة الصباح»، «فندق صباح الخير»؛ ثم قطعة متواضعة جداً: «فندق المدينة». كانت له شرفة طويلة على الشارع، وراقت لي فكرة الجلوس هناك في الأماسي لمراقبة طوفان المرور وهو يتراكض في الأسفل.

لم تكن الدرجات التي صعدتها من الانحدار والكثرة كدرجات «فندق ملكة سبا». وتساءلت لماذا لم تكن لتلك الفنادق ردهات في الطابق الأرضي، ولكنني أدركت أنها لا تشغل إلى الطوابق العليا، لأن ما تحتها تشغله الدكاكين. وعلى أي حال، لم أكن أدخل «فندق شهرزاد» بهوائه المبرّد، حيث تخيلت حديقة تطل على النهر، وخدماً يتميزون بالنظافة، وفتيات جميلات يرتدين فساتين بلا أردان.

كانت هناك منضدة ينعس خلفها رجل في منتصف العمر. لم يكن حافياً فحسب، وإنما كان بملابسه الداخلية أيضاً. وعندما تنحنحت هب واقفاً على قدميه. فقلت باختصار: «أريد غرفة بسرير واحد».

– «نعم يا سيدي».

كان له وجه يذكرني بإيقونة ؟ إيقونة قديمة، مشققة، مخدشة. كان وجهاً أحببته فوراً.

وقال لي وهو يطلعني على الغرفة: «يمكنني أن أعطيك غرفة في الجانب الشمالي، ولكن الشبابيك عالية؛ أو غرفة فوق الشارع» ؟ وفتح باب إحدى الغرف ؟ «ولكنها مشمسة أكثر من اللازم. تستطيع طبعاً أن ترخي الستارة، كما ان باب الشرفة له ستارة هو الآخر، وتوجد هنا مغسلة أيضاً. وإذا وجدتها شديدة الحرارة فسأعطيك مروحة».

– «هل عندك شراشف نظيفة»؟

– «سآتي لك بزوجٍ نظيف حالا».

وأخرج رأسه ونادى: «يوسف!» ثم تكلم مع يوسف الذي أجاب النداء بلغة غريبة، فسألت: «ما هي هذه اللغة»؟

فأجاب باختصار، ولم يبدُ انه قد سُرَّ للسؤال: «كلدانية».

– «هل أنت مسيحي»؟ كنت أظن المسيحيين أقلّ من أن يوجدوا

بملابسهم الداخلية وهم يديرون فنادق المسافرين.

– «نعم».

وبدا عليه كأنه يفضي باعتراف قد يسوؤني. ولكنني شعرت شعوراً سخيفاً بالبهجة. كلداني؟ بعد ثلاثة آلاف سنة من بابل!

سألني، كما لو أنه يريد تغيير الموضوع: «هل معك أمتعة»؟

فأجبت: «تركتها في فندق ملكة سبأ».

ففتح عينيه على سعتهما، وقال: «هل مكثت هناك مدة طويلة»؟

– «لا، فقد وصلت قبل ساعة، ولم يعجبني المكان».

– «حسناً فعلت. هل رأيت بعض النساء هناك»؟

– «الواقع، كانت هناك واحدة».

فقال بثقة كبيرة: «هذه مومس. ولكن ربما لم تعرف ذلك».

فكذبت عليه بقولي: «شككت في الأمر».

وظهر يوسف. فكان عليّ أن أحبس ضحكتي. كان شاباً في الخامسة والعشرين، يرتدي ملابسه الداخلية هو الآخر، ولكنه يلبس نعلاً، مما أكد كثافة الشعر في ساقيه وركبتيه. وكان يحمل على ساعديه الممدودين بعض الشراشف وكأنَّها مخطوطات مقدسة، عرضها عليّ لفحصها. وعندما أظهرت رضاي عنها بدأ بترتيب السرير، وعدت أنا إلى عشيقة الملك سليمان لجلب حقائبي. كان بودّ شكري لو يقتلني بنظراته، ولكنه ابتز مني أجرة يوم كامل قبل أن أتركه. ولم تكن الفتاة عند المنضدة فتساءلت: ألعلها بين ذراعي أحد «المسافرينس في تلك الساعة القائظة؟



– ٢ –

بعد الظهر، أدرت المروحة ونمت. لم يكن «فندق المدينة» بالبناية الكبيرة، بل كان يهتز كلما مرت من تحته الباصات الثقيلة. ولما كان ثمة موقف للباص تحت الشرفة مباشرة فإن السيارات الحمراء الكبيرة كانت تزعق حين تقف، وبعد ثوان تجأر بصوت هائل لتمضي في طريقها، فترتج أرضية الغرفة وتنتقل الرجّة إلى جسمي عن طريق السرير الحديدي.

ظهر يوسف ابن صاحب الفندق على الطرف الآخر من الشرفة الطويلة. وسألني: «هل تحب أن تشرب شيئاً يا سيدي؟» كان قد ارتدى قميصاً وسروالاً.

– «نعم. شاي من من فضلك».

فصاح: «شابو»!

فأتى شابو، الخادم الوحيد في الفندق، إلى سيده من خلال غرفتي.

قال يوسف آمراً: «شاي للسيد».

فقال شابو: «نعم سيدي». ونقلته قدماه الرخاميتان بخفة الأجنحة.

سألني يوسف: «هل تعرف بغداد»؟

– «هذا هو يومي الأول هنا. هل هناك أماكن تجدر رؤيتها»؟

– «بكثرة. هناك سينمات ومقاه».

– «لا، أعني» ولم أعرف كيف أعبر له عما أعني.

– «فهمت. أنت تعني الكباريهات، حيث يمكنك الاستمتاع. ما عليك إلا أن تسلك هذا الطريق نحو الباب الشرقي».

– «وإذا أردت أن أتمشّى مدة ساعة، فأين تنصحني بالذهاب»؟

– «ما عليك إلا أن تسكل هذا الشارع الطويل، شارع الرشيد، الذي لا بد أن تطّلع عليه. إنه من الاستقامة بحيث لن تضيع فيه، ومن التنوع بحيث أنك ستحبه. سر بهذا الاتجاه» – وأشار إلى الاتجاه المقصود – «حتى تصل باب المعظم، وبذا تكون قد رأيت كل شيء تقريباً».

– «معك حق يا يوسف. ما نفع الخريطة حين لا يوجد إلا شارع واحد جدير بالمشاهدة»؟

ثم نزلت واندمجت بالناس. كانت الشمس الآخذة في الغروب قد تركت ضوءاً بلّورياً قاسياً. وغزت أحاسيسي فورة غير متوقعة من النشاط. نظرت إلى الوجوه والأيدي والملابس والسيارات وواجهات الدكاكين كما لو أنني لم أر مثلها من قبل. وبدا أن الرصيفين اللذين لوّنتهما ظلال منظورهما الطويل من الأعمدة يحفلان بجذلٍ مدهش. هذا مكان للفرح بعد تلك الأشهر من القهر والحبوط في الوطن.

عبرت ساحة الملك فيصل ؟ دوامة من الحركة، على الجانب الأيسر من الشارع يقع جسر الملك فيصل الذي يمتد فوق دجلة، وعلى الجانب الأيمن عدة فنادق ودكاكين يعلوها مقهى صيفي واسع مليء بالزبائن الذين لا يكفون عن الحركة، وكلهم من الرجال.

ولكن سرعان ما استحوذت على انتباهي نافذة أحد الدكاكين. كتب. كتب انكليزية جديدة! كانت ثمانية أشهر قد مضت على رؤيتي لمكتبة، وكنت قد ضجرت من كتبي في البيت، وقد انتظمت صفوفاً وسط عالم من البؤس. أما هذه فكتب جديدة ؟ ودخلت المكتبة ؟ ومجلات جديدة (لا يزيد عمرها عن بضعة أسابيع على أي حال)، وكتب بنغوين. وراقبني صاحب المكتبة، وهو شخص مهيب يصعب تقدير سنه، باسماً بلطف بينما رحت أقلّب الكتب وأشم رائحتها. وعندما اخترت في النهاية كتابين ومجلة (رغم معرفتي بأن ذلك يتنافى وميزانيتي) ذهبت إليه وتكلمت معه. ولما علم بأنني سأدرّس في إحدى الكليات أخذ يسهب في الحديث عن الكتب الدراسية المقررة. ثم خفّض لي سعر الكتب التي اشتريتها وقدّم نفسه. واكتشفت بعد بضعة أسابيع أن «مثيلس، وهذا هو اسمه، كلمة معروفة جداً في الأوساط الأكاديمية ؟ لأنها تكاد تكون تحت رحمته في الحصول على ما يُقرأ بأية لغة أجنبية.

في الشارع كان الزحام يخف والمكان يزداد فوضى. وكانت الشوارع الجانبية، وهي طرق سيئة الإضاءة تحت الظلام الزاحف وكثيرة النفايات عند الزوايا، تشبه الوديان العميقة الضيقة التي تمتص أو تتقيّأ الأشكال البشرية المجهولة باستمرار. لكن الفتيات كن أشد غموضاً من كل ما عداهنّ، خاصة منهن أولئك اللواتي يرتدين السواد من الرأس إلى القدم، ويمشين كنساء الأحلام، ويخبئن في ثناياهن عالماً من الأسرار التي لا تباح. وقف شبحان أسودان من هذا النوع في فسحة إحدى الممرات إزاء كومة من الأقذار ؟ كأنهما ذبابتان عظيمتان. ولكن كانت لغيرهما عيون وأفواه جديرة بالآلهة. ولقد كان مقدراً لهذه الانطباعات خلال الأشهر القليلة التالية أن تعاودني بحدة دائمة التجدد :الكمال والجراثيم، الفراشات والعقارب، العيون التي تشعشع فتنة والعيون التي تقطر سمّاً.

وعبرت ساحتين أخريين على الأقل ماراً بعدد كبير من المقاهي التي يزيد زبائنها عن طاقتها. وفي أحد المداخل كان ثمة رجل عاري الجذع يتدلّى ثدياه السمينان كأثداء الزنجيات الغضينات الجلد ممن يراهن المرء في الصدر. وفوقه كان ثمة لافتة تقول: «حمام عموميس. وعلى مبعدة مائتين أو ثلاثمائة ياردة وجدت فسحة على اليمين تنتهي فجأة بحائط فيه باب ضيق. كان عدد كبير من الرجال يغدون ويروحون من خلاله، وفي الداخل لمحت ومضات من الأشعة الحمراء والصفراء. وسرعان ما وجدت نفسي، مسوقاً بالفضول، أندمج بالكتلة البشرية التائقة للدخول.

كان التزاحم في المدخل الصغير من الشدة بحيث توجب عليّ أن أدفع الناس ويدفعوني قبل الدخول، مستنشقاً روائح العرق الانساني بسخاء. وفي الباب كان ثمة شرطي يفتش الجميع من الصدر حتى الركب. ولما كانت فكرة التفتيش غير الضروري قد صدّت نفسي فإنني أوشكت على الانسحاب مهما تكن المتع التي تكمن خلف ذلك الباب الضيق. ولكنني ؟ مدفوعاً من قبل الحشد المتزايد خلفي ؟ سلمت نفسي لتفتيش الشرطي السريع، واجبرت على دفع عشرة فلوس قبل الانسلال إلى ممر ينفتح على زقاق ؟ أغرب زقاق يمكن لمدينة أن تخترعه.

وقبل أن أجد متسعاً من الوقت للتفكير وجدت امرأة مطلية بطبقة سميكة من الأحمر والأبيض تجذبني من ذراعي. ثم أمسكت أخرى، تكشف بلوزتها عن ثدي سائب، بالطرف الأسفل من سترتي وتشبثت بها. وعندما خلصت نفسي منهما هاجمتني امرأتان أخريان. وصاحت إحداهن ؟ لم أكن أرى وجوهاً، بل بقعاً من الأصباغ ؟ «بلا فلوس، يا حبيبي، بلا فلوس». فأزاحتها واحدة غيرها وقالت: «لا، معيس. «معيس. «معيس. ؟ ذلك كل ما استطعت سماعه. كان زقاقاً طويلاً تتتابع الأبواب فيه بسرعة على الجانبين، وفيه مقهى صغير يجلس فيه بعض الرجال بهدوء مع عدد من النسوة، والجميع يرتشفون الشاي من الإستكانات... وقد غطّت النسوة المصبوغات الوجوه الأرضية المرصوفة، وملأن المداخل والنوافذ. ووقفت الأزواج المتحاضنة هنا وهناك، والرجال يهاجمون بلهفة بالغة. أما أنا فشعرت بوحشة قاتلة في ذلك المستنقع الآدمي الذي بدا أنني سقطت فيه دون أن تصلني بأحد صلة. كنت غريباً عاجزاً عن الاستجابة رغم تلك الجذبات والدفعات العنيفة كلها. كانت النسوة يجلسن على العتبات والكراسي وفوق الأرض.

كان الزقاق يؤدي إلى ممر يلتف بما يشبه الدائرة. وبعد أن قطعت مسافة قليلة في ذلك الاتجاه اعترضت سبيلي امرأة وقالت متوعدة: «دعني أرى هذه المجلة!» فأعطيتها لها بأدب جم. وأخذت تقلب الصفحات، ثم قالت وهي تهز رأسها: «انكليزية، ها... هل تستطيع المضاجعة بالانكليزية؟ لا شك أنك تستطيع أن تعلمني بعض الأشياء». فأخذت المجلة وأجبتها بلهجة اعتذار: «ربما ؟ لكن ليس الليلة». وعندما مشيت مبتعداً عنها سمعتها تقول ؟ لي أو لجارتها، لا أدري: «لا أعرف ماذا حلَّ بمثقفينا هذه الأيام. انهم والنساء سواء بسواء».

قادني الممر الدائري إلى الزقاق الأصليّ مرة أخرى. وهناك ابتسم لي شاب يقف لوحده عند المدخل وأنا في طريقي إلى الخارج، وقال: «يبدو أنك لم تفعل شيئا».

فقلت باختصار: «لا». ولكنه صاحبني إلى الخارج. ومضى يقول باهتمام: «يبدو أنك غريب».

فقلت في نفسي: «أف. لعله قوّاد ؟ ولكنه أصغر من أن يكون كذلك ؟ وشكله لا بأس به».

أجبته: «نعم».

– «من أين، إن كان لي أن أسأل»؟

– «فلسطين».

– «لي الشرف بلقائك. ألا تحسب أن ذلك مشهد رائع»؟

(وفكرت: لا يمكن أن يكون قواداً).

– «انه من أغرب ما شاهدت. هل فعلت أنت شيئاً»؟

– «ها ؟ لا. كل ما فعلته هو أنني أتيت بقصيدة لأريها لسميحة. وهي واحدة من الفتيات هناك، لكن كان لديها شغل كثير في غرفتها»

– «أية قصيدة؟» وشعرت بالاهتمام والفضول.

– «قصيدة كتبتها أنا عنها. الحقيقة أنني كتبت قصائد كثيرة عنها. إنها جميلة جداً لسوء الحظ، ويأتيها كثير من الزبائن».

– «إذن فأنت تعشق بغياً؟ فكرة أصيلة»!

فقال الغريب: «لا، أبداً. هذا أمر شائع في تاريخ الأدب وأنا دائماً أذكر بودلير الذي كتب القصائد عن تلك الزنجية الفظيعة».

سألته: «هل تحب سميحة وضعها هناك»؟

– «ليس كثيراً. لكنها لا تستطيع ترك المكان كما تعرف، إنها أوامر الحكومة. والأدهى أنها تعيش في رعب دائم مما قد يفعله بها ابن عمها».

– «فماذا تقصد»؟

– «ألم يفتشوك حين دخلت»؟

– «بلي».

– «فتشوك بحثاً عن أسلحة. فربما كنت تريد قتل واحدة من البنات».

– «ألهذا يوجد شرطي هناك»؟

– «نعم. والحقيقة أن هناك اثنين أو ثلاثة، وهم دائماً مسلّحون. ومع ذلك فقد يستطيع أخ أو ابن عم غاضب أن يدخل سكيناً معه. وقد قتلت بضع فتيات في ذلك الزقاق الممتع.

– «يا للسخرية. مسكينات»!

– «سخرية ؟» ثم تابع كلامه بتلك اللهجة البغدادية الغريبة التي تجمع بين خشونة الصحراء وشهوانية الحضارات القديمة: «للمحافظة على شرف زوجاتنا وأخواتنا علينا أن نخلق طبقة كاملة من النساء عديمات الشرف. من قال ذلك؟ هنا السخرية. ولكنهن ضروريات. وهذا إمعان في السخرية»!

كنا قد وصلنا إلى ساعة في إحدى زواياها مقهى كبير ؟ أو «كازينو» كما يقال لتلك الأماكن.

قال: «ما رأيك باستكان شاي في هذا الكازينو»؟

قال صاحبي: «اسمي حسين عبد الأمير».

فقلت: «جميل فرانس. وتصافحنا من فوق المنضدة.

سأل: «كيف الأحوال في فلسطين»؟

فأجبت: «آ... أفضل الحديث عن بغداد».

– «أفهم ما تقصد. أنت تدرك طبعاً ما هو شعورنا».

– «نعم. لا شك أن صحفكم ملأى بالأخبار والمقالات عنا».

– «ما أكثر ما عملناه من أجل فلسطين !لكن كل شيء راح سدى. الخيانة يميناً ويساراً، داخلاً وخارجاً. أنا أشتغل في جريدة «تلغراف الصباحس ؟ هل رأيتها؟ صحفنا تجد في فلسطين مصدراً غنياً للمادة التي تملأ الأعمدة. مادة مكرورة، جاهلة، غضبى، رنانة، وقد ملّها الناس. ولكن كيف يمكننا أن نثبت لهم أننا وطنيون إن لم نفعل ذلك»؟

– «حقاً كيف؟ على الأقل سأشعر بأنني لست غريباً هنا».

– «غريبا»؟ لقد لاحت له تلك الخاطرة غير متوقعة «كلنا أخوة. كلنا نواجه المصير نفسه».

– «برغم لهجتي»؟

– «ستكون لهجتك ذات نفع لك. فما أن نسمع لهجة غريبة حتى نصيخ السمع، نصبح أكثر اهتماما».

ثم نظر حواليه وصاح: «يا ولد! شاي. شاي».

فجاء جواب عالٍ من مكان ما: «حالاً».

سألت: «هل تكتبُ شعراً كثيراً؟» فأجاب بحماس» «نعم. وأنت»؟

– «كنت ؟ قبل سنين. أما الآن فأنا أعلّم الشعر فقط».

– «شيء مؤسف جداً. أنتم معشر المدرسين لكم طريقة في تدريس الأشياء القديمة تعملون بها على إدامة الأشكال القديمة. أما أنا فأحسبني متحرراً جداً في الشكل والأسلوب: الواقع أنا سريالي. يعجبني أن أصدم قرائي. يكرهون شعري ولكنهم يقرأونه مع ذلك. تلوت مرة إحدى قصائدي لسائق تكسي في المبغى، أتعرف ماذا قال؟ قال: لا أفهم كلمة منها يا أخي، ولكنها تجعل جلدي كله يكزبر، أليس ذلك أفضل تعريف للشعر؟ هل صادف أن رأيت ديواني»؟

– «لا أظنني رأيته. الحقيقة هي أنني أجهل كل شيء عن هذا البلد. أريد أن أتعرف على شعرائكم، وصحفييكم، وسياسييكم، ورساميكم».

– «بدأت البداية الصحيحة إذن ؟ أعني المبغى. فهو في وسط المدينة، وفي هذه المنطقة أيضاً تقع أجدر مدارسنا بالاحترام».

وضحك. كانت أسنانه سوداء من النيكوتين. «نحن شعب من المتناقضات. فأكبر بناياتنا تقع وسط البيوت الطينية، وأفضل شعرائنا يكتبون أتفه النثر.

لم أستطع أن أكون رأياً عن محدثي. مظهره لا يبرر لهجته الواثقة. وكان واضحاً أنه لم يحلق منذ عدة أيام، وكانت ثيابه رثة، باهتة اللون، ولا بد أنه يرتدي بدلته الوحيدة التي ربما لازمته منذ عدة سنين. كانت ياقته قذرة لم تكوَ قط، بينما التمعت عقدة رباطه من تراكم العرق. ولا شك أنها لم تحلّ منذ أسابيع. كان شفيعه الوحيد أنه حسن الطلعة: عينان سوداوان لوزيتا الشكل تلتمعان عبر أهداب طويلة، وشفتان جميلتان حين تنطبقان. إلا أنه كان يضحك أكثر مما ينبغي، مما يجعل سواد أسنانه يتلف جمال وجهه.

بدأت أشعر بالجوع فسألته عن المطعم الذي يمكنني الذهاب إليه، فقال: «المطاعم كثيرة، ولكن بوسعك أن تأكل هنا أيضاً».

– «هل يقدمون الطعام هنا»؟

– «لا. ولكن هل سمعت ذلك الشخص وهو يصيح (معلاق، قلب)؟ يمكننا أن نطلب منه أن يأتينا بشيء من معاليق وقلوب الخراف، مع بعض اللوبياء. أكلة مشبعة ورخيصة».

– لا بأس. سأجربها».

قُدِّمَتْ لنا ساخنةً في أسياخها، مع كثير من البصل النيء. قال حسين: «البصل يطهر روح الإنسان. وهو يشحذ الشهية، ويمكّنك من ابتلاع أي طعام في العالم». ثم جذب اللحم عن السيخ وقال: «إذن فأنت تريد أن تتعرف علينا. هل سمعت بعدنان طالب»؟

– «لا، مع الأسف».

– «يجب أن تلتقي به. إنه صديقي، وهو سيصحح الآراء التي قد تحصل عليها بشأننا من أساتذة الكلية الكسالى الذين لا نفع فيهم، والذين ستجد نفسك محاطاً بهم».

حاولت أن أبدو مسروراً وأنا أقول: «زرني أنت وصديقك في فندق المدينة».

وعندما خرجنا دفعت ما علينا وسرنا في الشارع، وأمطرني حسين بسيل من الأسئلة التي أخبرني خلالها بأشياء كثيرة عن نفسه وعن عدنان طالب. وبدا واضحاً أن البوهيميين لم يكونوا وقفاً على أوروبا. فهذه عاصمة هارون الرشيد تزخر بهم. وإن كان لي أن أصدق صاحبي، فإن الفنون الخلاّقة ما هي إلا بعض ما يشغل أذهانهم.

– ٣ –

لم يطل الوقت بحسين عبد الأمير حتى زارني في الفندق. وفي زيارته الثانية اصطحب معه شاباً قدمه لي بفخر كثير، قائلاً أنه صديقه عدنان طالب. كان عدنان يفوق حسين في كل موهبة يتمتع بها الأخير. وكان واضحاً أنه هو الروح الشريرة التي ألقت بحسين خارج المدرسة وخارج البيت في النجف إلى حياة القلق والمغامرة في شوارع بغداد كصحفي ومتسكع وعاشق مومس وشاعر. كان فقر حسين الذي رافقه طيله حياته مطبوعاً على ملامحه الناحلة، الجميلة رغم النحول، بينما عرف عدنان صبيَّ ذات شيء من الرفاه، مما أعطاه على الأقل جانباً من رشاقته وثقته بنفسه. وفي إحدى ليالي الصيف الحارة، حين كان لا يتجاوز السابعة عشرة، أوقع بالخادمة، وهي صبية ذات جسد ممشوق من إحدى المناطق الجنوبية، وذات وشمات زرقاء على وجهها ويديها، ولها ولع قويّ بالتدخين الذي تمارسه سراً. وقد نجح الإغراء بأن دسّ عدنان علبتين من السكائر الانكليزية في يدها بالمطبخ، حين كان أفراد العائلة قد ذهبوا كلهم للنوم على السطح.

وحملت الفتاة وسرعان ما اعترفت باسم حبيبها. ولدهشتها الفائقة زوّجها أبوها الغضوب المجنون بالخمرة من شخص لم تره في حياتها، وطرد ابنه من البيت. كان العقيد طالب، وهو سيد من المدرسة التركية القديمة، يشرب العرق بالزجاجة، قليل الكلام، ويكره النساء. وظن ان ابنه بهذه الطريقة قد يتعلم ألا يلمس النساء قاطبة. بله خادمة ذات وشم أزرق. إلا ان الطرد بالنسبة لعدنان كان نهاية الأرب إذ كان قد أظهر موهبة مبكرة لكتابة القصائد الغريبة اللاذعة، مما جعله يعتبر اقتلاعه من الحياة العائلية حدثاً دراميّاً جاء في وقته المناسب لتوسيع شهرته كشاعر.

في المقاهي والشايخانات كان عشاقه وحاسدوه، متملّقوه وثالبوه، يتحلّقون حوله لسماع آخر قصائده، وآخر مغامراته، وآخر آرائه السياسية. لم يعرف أحد على وجه التأكيد إن كان «تقدميا» (والطامحون للشهرة من الشباب يبدأون عادة بادعاء ذلك الاسم) أو «رجعيا». بل وصل الخبث ببعضهم حد اتهامه بأنه مخبر ينقل الآراء السياسية للمعجبين به إلى دوائر الشرطة السرية.

كان يبدو أنه لا عمل له. وكثيراً ما أتى بمفرده ؟ حين يكون حسين يراجع جريدته الهزيلة في المطبعة أو يقضي بعض الوقت في المبغى. دخل عصر أحد الأيام وتحت إبطه رزمة من الكتب الانكليزية، وقال: «هل تحب شيئاً من الديناميت»؟

فأجبت: «أفضل الديناميت الحقيقي. شكرا».

«كذا فليكن الرجال. أعرف بماذا تفكر. لكن ألا توافقني على أن الأفكار بالنسبة لنا ديناميت»؟

رمى الكتب على سريري وسألني: «هل رأيت حماماتنا العامة»؟

فضحكت وقلت: «أتريد إدخالي في طقوس التعميد»؟

– «نعم. فالحياة تبدأ بالماء. يجب أن آخذك إلى الحمام الذي أعرفه أفضل من غيره».

لم أكن كارهاً للذهاب إلى حمام عمومي مع عدنان. ولكن ما ان رأيت الخادم الضخم بثدييه المتدليين واقفاً في المدخل المتواضع حتى أدركت ان الحمامات العامة قد ولّى عزّها. كم كان عدد الحمامات في روما؟ والاسكندرية؟ وبيزنطية؟ وبغداد هارون الرشيد؟ مهما يكن العدد غير دقيق فإنه سيؤكد المكانة الهامة التي احتلتها الحمامات في حياة المدن الكبرى. لقد عبرت عن حب البشر للانطلاق الحسي بجانب الأحواض المرمرية، بينما يجد الفيلسوف والتاجر، القوّاد والملاك.

نزعنا ملابسنا ولففناها في حزمتين لتوضعا في صندوق تحت المصطبة الطويلة المحاذية للجدران في قاعة كبيرة. كان الكثير من الرجال يجففون أبدانهم أو يجلسون بعد اغتسالهم متلفعين بالمناشف، ويشربون الشاي بترف ظاهر؛ ولاحظت غريباً ذا شعر أشقر وعينين زرقاوين. كان قد خلع ملابسه ويقول شيئاً بالانكليزية لخادمٍ ذي كرش ضخم يضع وزرة حمراء على وسطه. سألني الخادم إن كنت قادراً على الترجمة.

كان صاحبنا يطلب صابوناً، فقلت ذلك للخادم. وسُرَّ الانكليزي بأن وجد أحداً يكلمه في هذه الاعراف التي قال انه كان روحاً ضائعة فيها. وبعد أن حصلنا ثلاثتنا على الليف وقطع الصابون فتحنا باباً ينبعث منه الصرير ويؤدي إلى غرف الاستحمام، غير انني وبرايان فْلنْتْ، صديقنا الجديد، وقفنا دهشين. كان المكان شيئاً أقرب إلى خلق ذهن قوطي مظلم منه إلى خلق ذهن عربي. كنا على عتبة قاعة واسعة تضيئها بشكل باهت حزمة ضوء بخارية راعشة تسرّبت من كوّة مستديرة في السقف المقوس.

قلت وأنا أفتح الحنفيات: «لا بد أن هذا المكان صممه رجل ذو روح معذبة».

فقال برايان: «كان بيرانيزي خليقاً بأن يفخر به».

فنشر عدنان جثته العظمية، وقال: «سمعت ان ايطاليا فيها حمامات أفضل من حماماتنا. تعطيك الماء الساخن والجنس، معا».

فأجاب برايان: «لم أذهب لأيّ منها، ولكن لن يدهشني أن أعلم انهم ما زالوا يعيدون تمثيل الأجزاء الفاضحة من الساتيريكون».

فقال عدنان بشيء من نفاد الصبر: «وما هو الساتيريكون»؟

– «كتاب يدور في معظمه حول اللواط ؟ هذا على الأقل ما تتذكره بعد أن تقرأه. وهو كتاب ممتع جداً».

ونظر إلينا شخص طويل مفتول العضلات له جلد شديد السواد، نصفه الأعلى عار بينما يكسو نصفه الأسفل قماش أحمر مخطط. كان واحداً من الخدم.

سألنا: «هل يريد أحدكم تدليكاً أيها السادة»؟

فصاح برايان: «يا له من جسد رائع!» أفهمته سؤال الرجل وقلت إنني أفضل الاغتسال على مهل.

فهتف قافزاً على قدميه: «أنا أحب التدليك». وقاده الخادم الأسود إلى كشك في الجانب الآخر.

أما عدنان فقد ضج بالضحك، وقال: «أظنني أعرف ماذا يريد صاحبنا الانكليزي».

فقلت: «التجربة».

وعاد برايان، يخطو بحذر فوق الأرض الزلقة، فسألناه: «كيف كان التدليك»؟

– «رائع. رائع جداً. سأعود هنا مرة أخرى».

سألت أنا: «المدلك جيد»؟

– «ليس هناك يا صديقي العزيز شيء عن الجلد الانساني لا يعرفه ذلك الرجل الأسود».

– فقال عدنان: «كن كريماً. ليس ذلك الرجل أسود».

سأله عدنان: «كم صار لك هنا»؟

– «هذا هو يومي الرابع».

فسألته: «تدرّس»؟

– «لا سمح الله! أنا أعمل في البنوك».

– «من يسمعك يظنك في الخمسين من عمرك».

فضحك: «تركت اوكسفورد في حزيران الماضي فقط».

فقال عدنان وهو يعتصر ليفته التي تشبه الاسفنجة فوق فخذيه: «ثم فكرتَ بأن رحلة للشرق البربري ستكمل ثقافتك»؟

– «أنا أدرس اللغة العربية. وقد رغبت دائماً برؤية الأقطار العربية وأنا أنتظر ذلك اليوم الذي أستطيع فيه أن أقرأ القرآن بطلاقة العربي. ثم إنني لا أظن أن بلداً يمكنه تصميم حمام عمومي كهذا بلد بربري».

لم يؤثر ذلك بعدنان الذي همس لي بالعربية: «ابن الكحبة، عَبَالَهْ نُصَدّكَهْ. الله يدري الليلة راح يكتب تقرير بكل اللي صار، للسفارة».

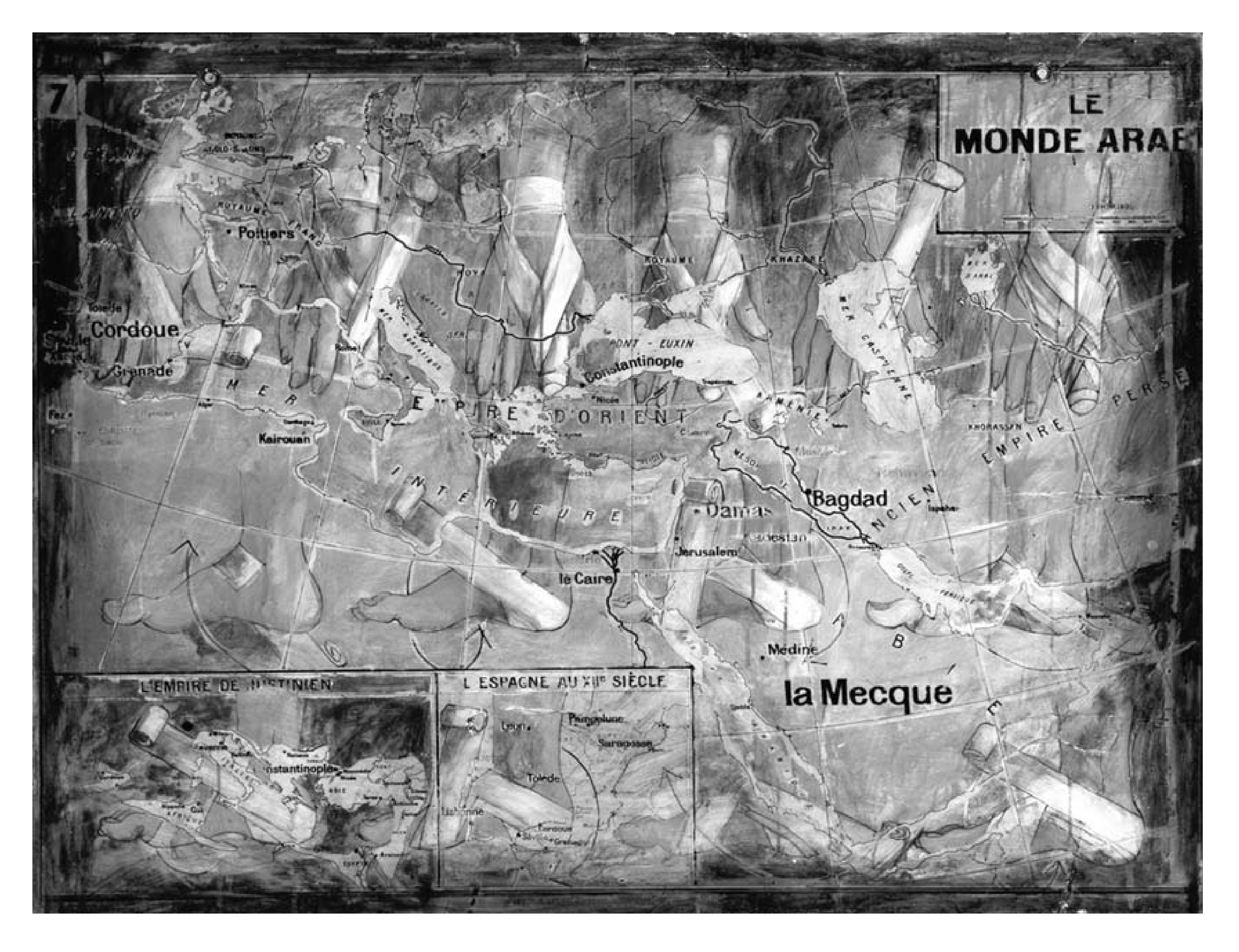
فاستفسر برايان ببراءة: «ماذا قال»؟ كانت عربيته المحكية، إن كان يعرف منها شيئاً، لا تصل اللهجة البغدادية.

– «آ، قلتُ إنه يسرني أن أعلمك العربية» لم يكن عدنان عديم الحيلة.

– «هل لكما أن تأتيا كلاكما لنشرب شيئاً في فندق شهرزاد»؟

فقلنا: «نعم».





– ٤ –

عندما دخلنا باب الفندق الضيق همس لي عدنان بالعربية: «هل تظنه مخلصاً»؟

كان وجه برايان يشع بالاهتياج حين صعدنا الدرج والتقينا عليه بكرديين طويلين ضخمين بملابسهما القومية، كلاهما يرتدي عمامة كبيرة ذات شراشب، وسروالاً فضفاضاً أزرق تنبعث منه الخشخشة أثناء الحركة. وجدنا يوسف وشابو في غرفة الادارة الصغيرة. ووقف شابو سعيداً لرؤية غريب ذي عينين زرقاوين، ثم أشاح بصره وبدا عليه الهم. أخذت مفتاحي ومشينا في المجاز نحو غرفتي يتبعنا شابو. استدرت نحوه وطلبت ثلاثة استكانات من الشاي.

جاء شابو بالشاي وأسقط من تحت ذراعه بعض الشراشف النظيفة فوق السرير ثم أتى إلى الشرفة. وعندما أخذنا استكاناتنا اتجه نحو السرير ليبدل الشراشف. إلا إنني دخلت وقلت له ألا يفعل ذلك إلا بعد ذهابنا.

فقال هامساً: «عزيمة أخت يوسف أتت بالشراشف لتوها. وهي تريد الشراشف المستعملة لتأخذها إلى البيت، ولا تستطيع الانتظار طويلاً يا سيدي».

– «لا بأس». لم أكن راغباً بمناقشته. فعدت وقلت لبرايان: «هل لاحظت قدميه»؟

ولكن قبل أن يتمكن برايان من الاجابة سمعنا صرخة عالية حادة من الداخل تبعتها صرخة أخرى يصحبها صوت أقدام ثقيلة في المجاز. ثم هرعت فتاة ترتدي عباءة سوداء إلى باب غرفتي يملأها الرعب وصرخت: «شابو!» فهرع شابو إليها، إلا ان يوسف سبقه وجذب الفتاة إلى الخارج وطعنها بسكين طويلة في بطنها. شحب وجه برايان. أما عدنان الذي كان متكئاً على الحاجز فقد رشف رشفة أخرى من استكانة دون أن يتأثر، كما لو انه اعتاد على رؤية هذه المناظر.

وجاءت من المجاز صرخة مخنوقة أقصر. وصاح شابو صيحة مرعبة، فركضت نحو المجاز، وهرع نزلاء الغرف الأخرى. وسرعان ما وُضع حدٌّ للاضطراب والصراخ بحشرجة مبحوحة أليمة من يوسف الذي سقط مرتخياً بين ذراعي شابو القويتين.

كانت الفتاة مطروحة على ظهرها وسط بركة من الدماء الزاحفة ببطء نحو بابي. وكانت أطرافها تنتفض بعنف بين الحين والآخر، بينما سقطت عباءتها السوداء تحت رأسها الملتوي وكتفيها محيطة بها كالخلفيّة في صورة مؤطرة. وكانت عيناها مفتوحتين وفمها يلهث طلباً للأنفاس. أما يوسف، بوجهه المبيض الذي ملأه الرعب حتى ليصعب التعرف عليه، فقد ظل مسمّراً بين ذراعي شابو. وفجأة انفجر باكياً يئن أنات مخيفة تنبعث من أعماق أحشائه، وتهاوى إلى جانب الجسد المطروح فوق الأرض. كانت تلك أخته، وقد مزق هو بطنها.

لم نعرف من نستدعي: الطبيب أم الشرطة. إلا أن شخصاً طويلاً بالزي البدوي صاح على يوسف من فوق جثة الفتاة: «هل القضية قضية شرف؟ حسناً فعلت يا رجل! ما أحسن أن نرى أننا لم نفقد احساسنا بالشرف بعد. حسناً فعلت يا رجل!» وبانتصاب قامة المنتصر الذي يدوس على عدوه المنكفئ أمسك بحواشي عباءته ومضى خارجاً. فهمس عدنان: «هذه عينة من الشرف. لا شك ان صاحبنا المحترم ذاهب الآن لزيارة إحدى البغايا، ولكن لا بأس».

لم يكن الوقت وقت مواعظ. وتذكرت ان دكان الحلاق الذي يقع تحت الشرفة فيه تلفون، فنزلت وتلفنت لثلاثة أو أربعة أطباء أخذت أسماءهم حسبما اتفق من قسم الأطباء في دليل التلفون. أخيراً وافق أحدهم على المجيء. وما هي إلا دقائق حتى ظهر شرطيّ على المسرح أسرع بالخروج ليعود باثنين آخرين. وعندما وصل الطبيب وجد الفتاة قد فارقت الحياة.

كان التحقيق الذي تلا ذلك مباشرة طويلاً مملاً. لكن الحياة الانسانية، كما قال برايان، تستحق ساعتين من الازعاج. ورغم انه شعر في البداية بالحرج ؟ لأن الجميع كانوا ينظرون إليه باعتباره غريباً – إلا انه، كما ظهر فيما بعد، استمتع بوجوده هناك.

– ٥ –

كان أشدَّ الناس حزناً في بغداد، خلال الأيام القليلة التالية، هو طوبيا صاحب الفندق. قال: «فظيع أن أفقد ابنتي بهذا الشكل. ولكن إذا فقدت إبني أيضاً فسيكون الأمر أفظع». إذ بدون يوسف كان من الصعب على ذلك الكهل أن يدير الفندق لأنه كان أمياً ولا يستطيع إعداد السجلات حسب طلب السلطات. يسألني: «هل تظن انهم سيأخذون الظروف المخَفِّفَة بنظر الاعتبار أثناء المحاكمة؟» ثم يضيف بعصبية مفاجئة: «النغل، الخائن، قاسي القلب، الكلب ابن الكلب، يطعن أخته المسكينة تحت سقف أبيه. أتمنى له الشنق. ولكن هل تظن انه سيحكم عليه بأكثر من ثلاث سنوات؟ هكذا وعدني المحامي. وهذا سيكلفني كل ما أملك. كل ما أملك. الكلب ابن الكلب»...

وفي إحدى الأمسيات جاء إلى غرفتي وقد أنهكه الهم. وقال متلعثماً: «المعذرة يا سيد جميل. ولكن هل لك أن تدفع لي إيجار الأسبوعين الفائتين»؟

فقلت: «يصادف موعد القبض غداً. وأعدك بإنهاء الحساب وقت الغداء. هل يناسبك هذا»؟

– «المشكلة يا سيدي ان أول محرم قد اقترب، وهو يصادف موعد تجديد إيجار الفندق. ويجب عليّ أن أدفع إيجار السنة مقدماً، كما هي العادة... أنا قلق جداً، وقد صرفت معظم ما عندي على قضية ابني. ومن الناحية الثانية هناك شخص قذر يتردد على مالك البناية لاستئجارها. وقد عرض عليه خمسين ديناراً أكثر مما أدفع أنا: إلا انني قد أتفادى الضربة إذا دفعت الايجار في الوقت المحدد».

غير أن طوبيا فشل في تفادي الضربة.

وفي إحدى الليالي ملأ المدينة صوت جديد. كنت في سريري حينما أيقظني صوت ذهبي غريب يترنم بدعاء طويل. كان ندباً على مقتل الحسين، الإمام الشهيد، وينبعث من مكبرات الصوت الموضوعة ربما على مئذنة جامع قريب. وامتلأت الشوارع خلال الأيام العشرة التالية بمواكب الرجال والنساء الذين يحيون ذكرى آلام الحسين بن علي بأهازيج حزينة طويلة، كما فعلوا طيلة الثلاثة عشر قرناً الماضية. ومن خلال نوافذ البيوت كان يسمع نواح النساء وهن يرددن المراثي، وفي كثير من الساحات والجوامع كانت جماهير من الرجال والنساء تمزق الشعر وتلطم الصدور، وهي تصغي من خلل الدمع إلى قصة مصرع الشهيد الكبير، تروى شعراً ونثراً، بالعامية والفصحى. لعشر ليال طوال ظل النواح يتردد بين أرجاء المدينة كما لو ان النجوم المتلألئات الكبار في سماء بغداد راحت تذرف الأحزان على رؤوس الناس. هكذا استقبلت السنة الهجرية الجديدة – وما أنسبه من استقبال! تذكرت كيف كان تموز قبل ثلاثة آلاف سنة يبكيه الشعب هنا في وادي الرافدين، حين كان دجلة، «نهر النخيل»، والفرات «نهر الخصب»، يسمعان صرخات الصبايا في الشوارع بجدائلهن المرخية وصدورهن العارية بكاءً على الإله القتيل الذي سينبعث مرة أخرى مع السنابل الخضراء والشقائق الحمراء.

طوبيا أيضاً بكى، ولكن لسبب آخر. رأيته في الصباح، أثناء خروجي، جالساً في مكتبه الصغير، ممسكاً برأسه الأشيب بين يديه، دون أن يبدو هذه المرة كالايقونة البيزنطية. كان سماع نشيجه مؤلماً، إذ أصبح من الواجب عليه أن يخلي الفندق، لأن المستأجر الجديد سيحتله في ذلك اليوم.

وعندما عدت ظهراً وجدت المجاز غاصّاً بالأسرّة والكراسي والخزائن من كل الأحجاب والأشكال، بمرايا ملمعة كبيرة. لقد تم التبديل بسرعة هائلة. خادمان جديدان مهلهلا المنظر، غير حليقين، يرتبان الأشياء في محلاتها مع شابو – الذي قيل لي أنه سيعمل في خدمة الإدارة الجديدة.

وقُدِّم لي داود، المالك الجديد.

قال لي وهو يطقطق حبات مسبحته: «سأعمل على راحتك يا سيد جميل بحيث أنك لن تتركنا. هيا، الق نظرة على غرفتك». وقادني إليها – «أنظر، هذان كرسيان جديدان، وهذا سرير خشبي. هذا يستحق أن يسمى سريراً، أليس كذلك؟ وما أبدع هذه الخزانة لملابسك! لن يتجمع الغبار على بدلاتك بعد الآن. سجادة؟ بالطبع. سآتيك بسجادة حالاً. ثم انك لن تدفع فلساً واحداً أكثر مما كنت تدفع». وظل صوت

مسبحته يقول: طق... طق...

كنت قد بدأت العمل في الكلية، وفكرت انه يجب عليّ أن أسكن في مكان مقبول. وليوم أو يومين شعرت بإغراء البقاء تحت الإدارة الجديدة. ولكن شابو سرعان ما أعلمني بما كنت سأقع فيه. فبعد أن جلب فطوري أغلق الباب بعناية وبدا ان لديه شيئاً يريد أن يسره لي وابتدأ: «عمي، هل أنت سعيد هنا»؟

فقلت متحاشياً إبداء مشاعري: «لا بأس بالحال».

– «المالك الجديد معجب بك، وهو يريد أن تبقي».

– «ما دمت أدفع الإيجار، لا أرى مبرراً لأن يفعل غير ذلك».

– «ولكنه يريد أن يبقى عنده من هم من طبقة محترمة».

– «أمر مفهوم، أليس كذلك»؟

– «بلى، ولكن هل تعرف ما الذي كان يدير قبل أن يأتي إلى هنا؟ مكاناً مشبوهاً. وقد أغلقته الشرطة، وتوجب عليه أن يجد مكاناً آخر».

– «شابو، لا يمكنني الدخول في تاريخ صاحب كل فندق أذهب إليه».

– «لا طبعاً. لكنه سيحول هذا أيضاً إلى ماخور سري بطبيعة الحال».

– «ماذا»؟

– «المشكلة يا سيدي هي أن هذا شغله منذ خمسة عشر عاماً. إنه في حقيقته قوّاد. فقبل خمسة عشر عاماً أتينا معاً أنا وداود إلى بغداد. أتينا من نفس القرية. اشتغلت أنا خادماً بينما اشتغل هو قوّاداً وهو الآن رجل غني يملك عدة آلاف من الدنانير. أما أنا فما أزال خادماً لا أملك إلا القمل الذي في شعري». وضحك ضحكة الصبر والإذعان، ثم أضاف: «يؤسفني أن أزعجك بهذري. البيض المسلوق قد برد».

شعرت بالقرف؟ ولكن الأمر أضحكني أيضاً. إلا أن شكي بأن شابو إنما تكلم مدفوعاً بالحسد تجاه صديقه الناجح جعلني أفكر بأن من الأفضل أن أكلم داود نفسه عن المسألة بعد العودة من محاضراتي في الكلية. وفي حوالي الرابعة من عصر ذلك اليوم زارني برايان.

وصاح وهو يضطجع على سريري الجديد: «يا له من تغيير! سجادة حتى في الممر! لم يعد فندقك ذلك الحان العتيق الذي يصلح للقديسين والقتلة، بل أصبح فندقاً برجوازياً عادياً».

فقلت: «أصبح منظره محترماً، أليس كذلك؟ مظهر سخيف يمكن لكل الرذائل أن تمارس فيه دون خوف من عقاب».

فقال برايان مرحاً: «جميل! لا تقل لي انك حصلت على عشيقة»؟

– «أخشى أن الأمر ليس ممتعاً إلى هذا الحد. فقد علمت من مصدر موثوق أن المكان سيتحول إلى ... بورديلّوس.

– «بديع! ستمتلئ أيامك بالمتعة وأنت تراقب ربات الجمال العاريات وهن يؤدين طقوسهن».

فقلت: «أي والله، أستطيع أن أتصورهن». ودقت الجرس. وعندما جاء شابو قال إن داود يريد أن يأتي ليتحدث معي.

– «لا بأس. قل له أن يأتي، وهات لنا ثلاث شايات».

دخل داود حاملاً مسبحته الطويلة. وعندما قدّمته لبرايان أظهر قدراً كبيراً من اللطف: ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً أكثر من «كيف حالكز وسنعمس بالانكليزية. ولم تكن العربية الدارجة عند برايان أفضل بكثير.

وبعد أن أجلس داود نفسه في كرسيّ مريح دلّى مسبحته بين ركبتيه وأخذ يداعب حباتها كما لو أنه يعدها، واحدة واحدة، اثنين اثنين، ثلاثاً ثلاثاً.

قال: «لا أريد ازعاجك يا أستاذ. ولكن خطر لي انك قد تستطيع مساعدتي في إيجاد اسم للفندق».

ولاحظت أن برايان كان يراقبه عن كثب مسحوراً بمسبحته التي تضبط إيقاع كلامه.

قلت: «لا أظنني أعرف الكثير عن أسماء الفنادق».

– «أنت سافرت للخارج يا أستاذ، ولا شك انك نزلت في عشرات الفنادق».

– «لا أحسبك تريد أن تدعو فندقك الامباسادور أو الريالتو، تمام؟ يمكنك طبعاً أن تدعوه «جنة عدن».

ولم أستطع منع نفسي من مشاكسته قليلاً. «كثير من الناس يعتقدون ان عدن تقع في هذه الأنحاء».

وحين جيء بالشاي دهشت لرؤيته يقدم بإبريق خزفي مع أكواب خزفية. وصببت الشاي في الأكواب.

– «لنكن جادين يا أستاذ؟» (وبدا أنه يجد لذة حقيقية في مخاطبته لي بكلمة استاذ)؟ «ما رأيك بالشمس المشرقة أو القمر الطالع مثلاً»؟

ترجمت الاقتراح لبرايان، فصاح هذا: «يا لربّة العفاف المسكينة!» فقلت لداود مفسراً: «يعتقد صديقي ان القمر الطالع اسم مناسب. ولكن لِمَ لا تسمي الفندق باسمك: فندق داود، نسبة لصاحبه داود»؟

– «الحقيقة أن آخر فندقين لي كانا يحملان اسمي ولديّ. ألم تسمع بفندق ميخا؟ كان محلاً مشهوراً».

فملت إلى الأمام باتجاهه وقلت بصوت خفيض: «ولكني فهمت أنه أغلق من قبل الشرطة».

– «نعم، بشكل ما»

– «كان عندك بنات فيه، أليس كذلك»؟

– «ألا يفهم صاحبك اللغة العربية؟ إذن أقول لك بصراحة انه كان عندنا كل شيء. كان يهمنا أن نرضي جميع الأذواق. كان مكاناً رائعاً»..

أدهشتني صراحته، فقلت: «هذه الأشياء ممنوعة، أليس كذلك»؟

– «أستاذ، أطال الله عمرك. لا شك انك تعرف ان الدراهم القليلة في اليد الصحيحة تفتح كل طريق. ولكنها لم تكن قليلة أبداً، لا والله. لقد كلفني الأمر ما لا يقل عن خمسين ديناراً شهرياً لابعاد الناهشين عني. ولكن لسوء الحظ زاد عدد عملائنا في النهاية زيادة كبيرة، وأصبح المكان معروفاً لدى الجميع. وهكذا جرت عملية كبس للمحل – كنت أعلم بها مقدماً، طبعاً. ورغم انه لم يثبت عليَّ شيء فقد نصحت بإغلاق المحل إلى الأبد. ولكن ها أنا أبدأ حياة جديدة يا استاذ. عندي من المال ما يكفي لتشغيل مؤسسة نظيفة شريفة. وهذا هو السبب الذي يدفعني لتسمية المحل باسم جديد، رغم انه صغير جداً بالنسبة لما أريد عمله. سأكون شاكراً لو تحدثت لأصدقائك عنه. هل رأيت التلفون الذي ركّبته اليوم؟ تخليت عن الرقم القديم».

– «ما دام الأمر كذلك فأنا أظن أن القمر الطالع اسم مناسب».

وعبّ داود قطرات الشاي الأخيرة من كوبه ووقف على قدميه، وقال: «يسرني أنك توافقني». ثم صافحني وصافح برايان وذهب.

كان كل ذلك بالنسبة لنا نكتة عظيمة. وبعد أن سمع برايان خلاصة حديث داود قال: «الشيء الشريف الوحيد عند داود هو مسبحته. مسبحة رائعة حقاً. أما البقية فيمكنك اعتبارها من كلام الساعة، لا أكثر. فهو يريد عدداً من الناس «المحترمين» ليظلوا هنا تغطية لمهنته».

وقبل أن يمر أسبوع لاحظت اثنين أو ثلاثاً من الإناث لهن مظهر غريب يدخلن إلى غرفة النوم عبر المجاز.

كان كل من عدنان وحسين ينتظران بلهفة أخبار «الأفراح والنكاح والليالي الملاح»، وشعرا بالأسف لدى سماعهما إنني أبحث عن شقة في مكان آخر. وقبل أن أغادر الفندق بيومين أتى شابو إلى غرفتي بزي كزي الأمراء، بعمامته الملونة وزبونه الموشّى بالقصب. ومدّ نحوي يداً قوية ذات أصابع مقرّنة، وقال بلهجة ودّية: «أتيت للوداع يا جميل. أنا عائد إلى بلدي».

فقلت: «ما أجمل هذا الزيّ»!

– «هكذا أريد أن يراني أصدقائي حين أصل إلى قريتي. أغلب الظن انهم سيحسدونني. لن يعرفوا أنني عانيت كفايتي من المدينة. مع السلامة وبارك الله فيك أينما ذهبت».

فأدخلت يدي في جيبي بسرعة وأخرجت ديناراً وضعته في راحة يده أثناء مصافحتي له. وقلت له: «أرجو تبليغ تحياتي لعائلتك».

– «شكراً. شكراً جزيلاً، سيد جميل. اعتن بنفسك، ولا تدع أحداً في هذه المدينة يعرف بماذا تفكر أو ماذا تفعل». وخرج بعد أن قدم تلك النصيحة الأبوية.

في ذلك المساء نفسه لمحت أثناء خروجي من أحد المطاعم رجلاً مسناً يجلس على عتبة دكان مغلق ويحمل لوحاً صغيراً تغطيه دفاتر بطاقات اليانصيب. كان صوته البائس الضعيف يهتف: «خمسة آلاف دينار. خمسة آلاف دينار». وعرض عليّ البطاقات حينما اقتربت منه، لكنه صاح حينما عرفني: «سيد جميل. كدت ألاّ أعرفك».

كان ذلك طوبيا المسكين، المحطم، الضائع.

وقال مشيراً إلى يوسف: «حكموا عليه بالسجن لمدة أربع سنوات. من يقول أنني سأعيش أربع سنوات أخرى أبيع هذه البطاقات القذرة»؟

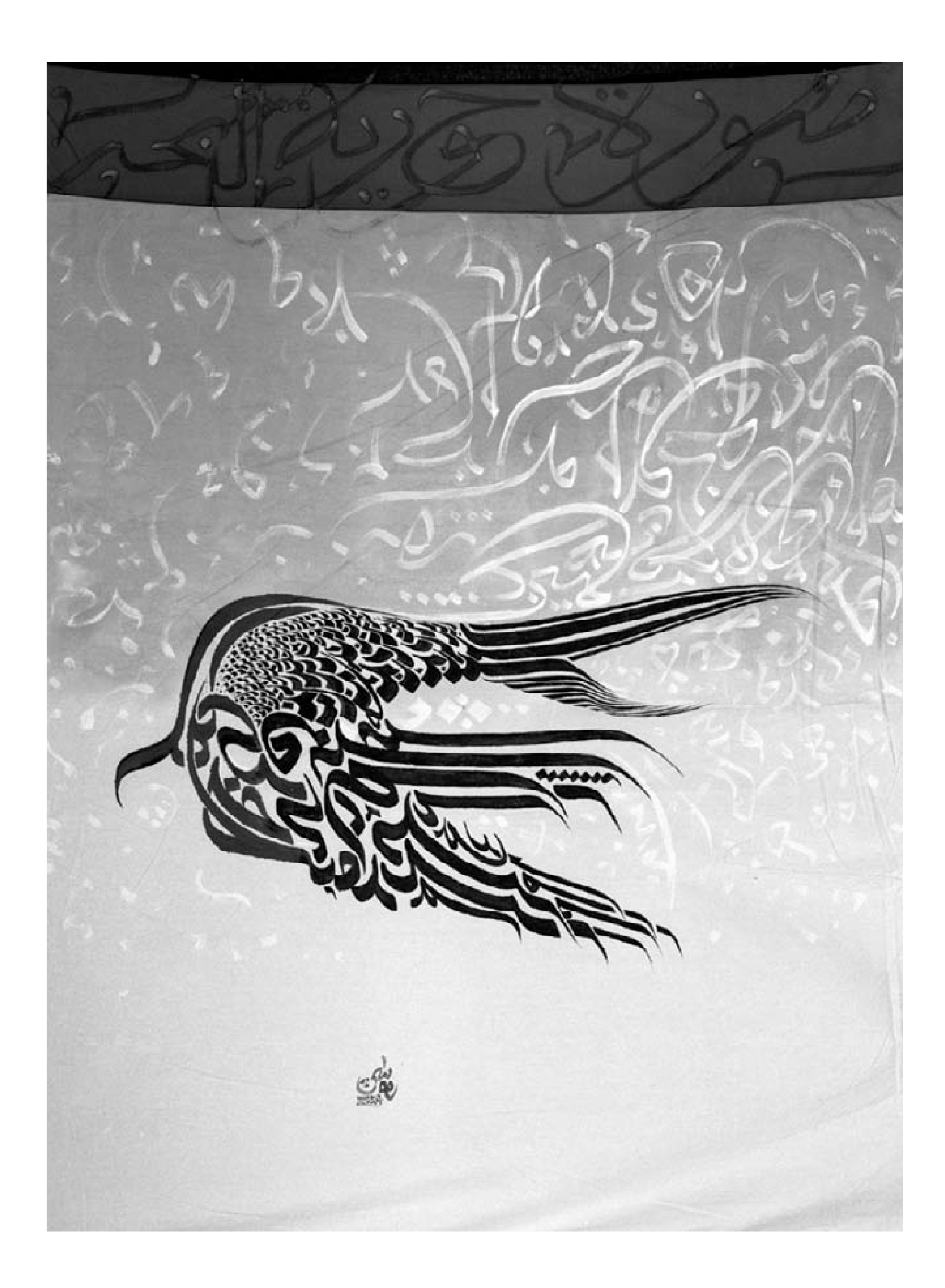
– ٦ –

في شارع الرشيد يكمن جوهر مدن التاريخ كلها، ونهر دجلة الذي يشطر المدينة شطرين متناسقين يحمل في جريانه الوئيد المترامي ذكرى حضارات عمرها آلاف السنين. والشارع والنهر يتوازيان كالمادة وصورتها: فالشارع المزدحم والمتمهّل في وقت واحد، إنما هو تجسيد لقوى النهر الحيوية. فلا عجب إذا طغت المياه على الشاطئين أحياناً في الربيع على الشارع وتفرعاته وامتداداته: إنه لقاء المثيل بالمثيل.

لقد قضيت الساعات الطوال في المسير بمحاذاة الشطآن الطينية لدجلة، متتبعاً مجراه من الشمال للجنوب، من الكاظمية حيث تلتمع تحت الشمس، خلف جسر طويل متهزهز قائم على القوارب، المنارات الذهبية للجامع الكبير؛ نزولاً مع البساتين الواسعة وغياض النخيل الفسيحة والبيوت الكبيرة القديمة، عبر الحدائق والأكواخ الطينية (أشبه بخلايا نحل رمادية مغبرة، أو أورام على جسم ممروض، كان بقاؤها، كبقاء سكانها خلال قيظ الأصياف الطويلة القاسية، من قبيل المعجزات).

«لكننا لم نعد نقبل الأمور كما نراها». – هذا ما قاله عدنان لبرايان أثناء إحدى جولاتنا في السوق. كان عدنان يريد برايان فلنت أن يتعرف على بغداد من الداخل. «لا مدينتك الخيالية التي تغص بالشيوخ والحريم، بل المدينة الحقيقية، الفقيرة، المليئة بالناس الذين يجوعون ويحبون ويكرهون ويقتلون. أنت تعرف ما عانيناه خلال قرون. قرون هذا هو مفهومنا لأصغر وحدات الزمن. كافحنا خلال سبعمائة سنة أرضاً غير معطاء. نعم. عندنا نهران عظيمان، ولكن شبكات الري حطمتها الموجات المتعاقبة من الغزاة حتى أنهكت أرضنا، وتعلم شعبنا أن يقبل عبودية لا نهاية لها. جاءنا حكام من الخارج مع حشودهم، واكتسحوا البلد، وجلبوا معهم خيراً قليلاً وحيوية أقلّ. وفي النهاية أوشكت حتى آثار المفاخر التاريخية أن تمّحي، وتقلصت مدينة العباسيين العظيمة حتى أضحت مكاناً قميئاً تخنقه من كل أنحائه الأجمات التي لا تؤوي سوى الأفاعي واللصوص.

فقال برايان: «ولكنها آخذة في الانتعاش هذه الأيام. هل أقول شكراً للنفط»؟



فرد عدنان وقد استثير: «النفط على حذائي. أنتم لا تهتمون بنا إلا بسبب النفط. ولكننا لم نعرف أهمية النفط بالنسبة لنا إلا حديثاً. إنما المهم أن صحوتنا كانت صحوة ذهنية جاءت مع بداية القرن حين فتحنا أعيينا فأصابتنا هزة عنيفة. كان الفقر والمرض قد دمّرانا: إذ نقصنا من ثلاثين سنوياً إلى خمسة ملايين، وتحول القطر إلى يباب. هذه المدينة التي كانت تفاخر بجامعتها العظيمة حين كانت أوروبا تغط في الظلام لم تكن تملك قبل خمسين سنة أكثر من بضع مدارس بدائية، غير أن السنوات الخمسين الماضية كانت سنوات غليان.

«والآن»؟

– «الآن؟ لك أن ترى بنفسك. وقعنا في شرك سياسة توازن القوى، سياسة النفط، سياسة الشرق والغرب».

– «لكن لا يمكن أن تنكر يا عدنان أنكم قد بدأتم الآن تتمتعون بالحرية».

– «الحرية؟ كلمة رائعة»!

– «لا بد أنها تعنى شيئاً عند بعض الناس».

– «الحرية عندي تعني الانطلاق. نحن استيقظنا على خبطة قوية. واكتشفنا تقدم الغرب المادي، وآيديولوجياته ونظرياته السياسية، وأصابنا الرعب من ركودنا. لهذا أردنا الانطلاق، الجريان، الحركة».

– «ألم تحققوا شيئاً من ذلك»؟

– «أنت تعرف جيداً يا برايان أننا لم نحقق شيئاً بعد. لا تدّع الجهل بينما أنت تعرف ككل انكليزي آخر عن سياستنا أكثر مما نعرف نحن».

ضحك برايان وقال: «ما أكثر، ما ينسب لنا من الحكمة قدرٌ أكبر مما يمكن أن نحلم به. الحرية، على أي حال، ليست بالأمر الهين، فيما أحسب، بعد كل القرون من العبودية ؟ حسب تعبيرك».

– «بالضبط. عبودية مزدوجة: للأسياد الأشرار القادمين من الخارج، وللقوى المريضة في الداخل. وكل من هاتين العبوديتين ترتبط بالأخرى ارتباطاً وثيقاً. بل ان الوضع سيزداد سوءاً بعد أن زرع الغرب اسرائيل على بابنا».

– ٧ –

قالت صاحبة النزل: «سيد جميل، تلفونك رن أكثر من عشر مرات هذا اليوم عندما كنتَ في الخارج. يظهر أن أصدقاءك كثيرون».

كانت صاحبة النزل أرملة أرمنية تقارب الخامسة والأربعين. وبعد وفاة زوجها شغلت نفسها بإدارة نزل. كانت شقتها الواقعة في بناية على شارع الرشيد أصغر من أن تتسع لأكثر من مستأجرين كنت أحدهما. إلا أن ذلك كان يكفيها، وقد أعطيتُ غرفة واسعة لها ستائر زرقاء وفيها سرير كبير مستوٍ يبدو خلال النهار، بفراشه الكثير، كالديوان، كما كان فيها تلفون.

زارني عدنان في المساء، وبادرني بالقول حين دخل: «أنا غاضب عليك. تلفنت لك عدة مرات هذا اليوم. ألا تعود إلى البيت أبداً؟ أنا غاضب عليك».

فقلت: «أعرف. والسبب هو أنني خرجت من محاضرة أمس دون التكلم معك».

– « على كل حال، تلفنت لك اليوم لأقول لك أن سلمى الربيضي تريد أن تراك».

– «واحدة من المعجبات بي»؟

– «أنت لا تعرف سلمى. إنها تجمع الناس. وبرايان فلنت هو واحد من مجموعتها الآن».

– «من هي»؟

– «من زعيمات المجتمع».

– «متزوجة بلا شك».

– «من أحمد الربيضي، وهو عجوز أحمق لا بد أنه الآن في أواخر ستيناته».

– «وهي في أغلب الظن في أواخر عشريناتها».

– «لا تكن سخيفاً. كيف تكون امرأة بذلك العمر زعيمة اجتماعية؟ المهم أنها دون الأربعين».

– «يمكنني أن أتخيّل البقية: امرأة شابة لم يبق عندها في الحقيقة شباب يذكر. تقيم حفلة كل ليلة، وتهتم بأن يكون مدعووها شباباً من ذوي الوجوه الوسيمة. مضبوط»؟

– «تقريباً. ولكن حذار، فنحن أقرباء، وتربطنا علاقة صداقة قوية، كما أن حفلاتها ممتازة..ستريد أن تراك».

– «كان بوسعك أن تعطيها عنواني ورقم تلفوني».

– «قمت بذلك بالفعل. طلبت مني أن أصطحبك صابح أحد الأيام لتناول فنجان قهوة في بيتها»

– «ما رأيك بصباح الجمعة»؟

– «لا بأس. صباح الجمعة الساعة العاشرة. وأرجو ألا يكون زوجها هناك. ذلك العجوز الأحمق. حضرته عضو في مجلس الأعيان. يملك آلاف الدونمات من الأرض، وقد اشتغل بالسياسة طيلة حياته وسافر للخارج أكثر من عشر مرات، وزوجته من أذكى نساء المدينة، ومع ذلك فلست أظن أنه قرأ أكثر من كتاب أو كتابين خلال السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته».

فقلت ضاحكاً: «لو كان عندك بضعة آلاف من الدونمات فأغلب الظن أنك أنت أيضاً لن تقرأ أكثر من كتاب أو كتابين كل ثلاثين سنة. فما رأيك»؟

فتغير صوت عدنان فجأة وأصبح خشناً مزعجاً: «قبل وفاة والدي بوقت قصير حدث بينه وبين الثعلب اللعين أحمد الربيضي خلاف على شيء من الأرض. وعن طريق نفوذه وخبثه، وبسبب إدمان والدي على الشرب أقام عليه دعوى قانونية وحصل على الأرض. إلا أنه لم يستطع إنجاب ولد – أو بنت على الأقل – رغم أنه مضى على زواجه من سلمى أكثر من خمسة عشر عاماً. وهكذا فإن الأرض التي كانت ستصبح ملكي هي الآن ملك خصيّ لا يطاق».

قلت مقترحاً: «يجب أن تحاول استعادتها من سلمى. إلا أن المعرفة شيء والأرض شيء آخر».

«لسوء الحظ». ثم توقف. وبعد ذلك أضاف ضاحكاً: ومع ذلك فقد أعطتني حديثاً كارل ماركس لأقرأه. الحقيقة أنها أعطتني كارل ماركس والكتاب المقدس معاً. وقد وجدت «رأس المال» مستحيل الفهم، فأخذت أقرأ الكتاب المقدس. لو خلا هذا الكتاب من أسفار أرميا وحزقيال وأمثالهما لكان كتاباً ممتعاً حقاً».



– ٨ –

يوم الجمعة، الساعة العاشرة، فتح الباب خادم قادني وعدنان إلى داخل البيت. وظهرت علينا سلمى بتوقيت الممثلة البارع، ففوجئت لدى رؤيتي امرأة يبدو عليها الشباب، طويلة، رشيقة القوام – بل لعلها أرشق مما يجب– كانت زينتها على شيء من الكثافة، ونهداها مندفعين إلى الأمام في شيء من المبالغة. كان واضحاً أنها امرأة لن تترك الشباب يفلت منها بسهولة.

أُخذنا بعد أن قُدِّمتُ لها إلى غرفة جلوس واسعة، أثاثها قليل ولكنه ينمّ عن ذوق فاخر. قالت: «كان بود زوجي لو التقى بك يا سيد جميل، إلا انه اضطر للخروج بسبب قضية عاجلة».

فأجبت: «يسرني جداً أن عدنان أتاح لي فرصة اللقاء بك. لقد بلغ من كثرة حديثه عنك لي أنني تساءلت عما إذا لم يكن قد اخترعك اختراعاً».

ضحكت وقدمت لنا سكائر من صندوق مصدّف، وقالت: «خياله يحلق به بعيداً دائماً».

فصاح عدنان بصوت يفيض سعادة: «سلمى! لن أفيك حقك مهما قلت فيك».

فقالت هي حين نهض ليشعل سيكارتها «أنا أيضاً أحبك يا عدنان». ثم استدارت نحوي وتابعت: «لكنني أود لو أنه يبحث عن عمل شريف في مكان ما. إذ يبدو انه لا يملّ حياة (المتوحش النبيل) هذه».

فقلت: «ومن يملّ حياة مترفة كتلك»؟

فعلّق هو بقوله: «دماء المتشرد تجري في عروقي: هذا كل ما في الأمر».

قالت سلمى: «أليست هذه حالنا جميعا»؟

لم أستطع تصور حياة الفقر والتشرد خلف ملابسها الثمينة، فقلت: «أنت أيضاً يا سيدتي»؟

«ولم لا، لا يمكن للمرء طبعاً أن يتحكّم بظروفه دائماً والأسوأ من ذلك ان على المرء أن ينضج، آجلاً أم عاجلا».

وفجأة انتقلت سلمى إلى اللغة الانكليزية وقالت: «سيد فران، علمت انك أستاذ في الكلية. هل تمانع في إعطاء دروس خصوصية»؟

فهمدت كبريائي على الفور. قلت: «دروس خصوصية» وكان صوتي مفعماً بخيبة الأمل.

– «نعم. دروس خصوصية بالانكليزية. ليست ابتدائية تماماً. شعر، مسرحية، شلي، كيتس، المعاصرون... أنت تدري... ما ندرسه في الكلية لمجموعة ذات مستوى عالٍ نوعاً ما».

– «لمن»؟

– لشابة لا تستطيع الذهاب للكلية لأسباب خاصة».

قفزت إلى ذهني على الفور صورة فتاة ذات عينين كبيرتين مريضتين وشفتين مزمومتين بكبرياء، وجسد كسيح، بحثت عن طريقة أقول فيها لا، وسألت: «هل يهمك أن أدرّسها». فأجابت: «جداً».

وسأل عدنان: «هل لي أن أعرف من هي»؟

فأجابت على مضض: «ابنة أختي، سلافة».

لم يكن بوسعي أن أعرف، دون أن أسأل سؤالاً صريحاً، لماذا كانت تتستر إلى ذلك الحد حول المسألة. وشعرت بأن لون عدنان قد امتقع قليلاً حين عبّر بتقطيبة من الوجه وهزة من الرأس عن فهمه. وزادت سلمى الأمر سوءاً حين أضافت: «لا تخبر أحداً عن الموضوع، رجاءً».

سألتها: «هل تعيش في هذا البيت»؟

– «تعيش مع والديها في بيت جميل في شارع جعفر. بيت مثالي يطل على النهر».

– «بصراحة، مدام ربيضي، أنت أثرت فضولي».

– «كل ما في الأمر انها ابنة عماد النفوي. أما سمعت بعماد النفوي»؟

– «أهو نفسه الباحث العربي الذي كان، فيما أظن، وزيراً في وقت من الأوقات؟» وتذكرت كتاباً له عن شاعر عربي قديم وجدته في الواقع مملاً جداً.

– «المشكلة هي انه يرفض أن تذهب ابنته إلى الكلية. فهو يعارض اختلاط الجنسين في أي مكان كان. ومع ذلك فأنا أتولّى مهمة الحصول على مدرسين خصوصيين لتعليم سلافة. وهو لا يعترض على ذلك طالما كنت أنتقي المدرسين بنفسي. فأنا، كما تعلم، خالة سلافة».

– «ولكنك درست في جامعة، إذ هذا ما استشفه من لهجتك الأمريكية».

– «نعم، ذهبت الولايات المتحدة. كان ذلك قبل سنوات عديدة، حين كان مجرد تعليم المرأة خطيئة كبرى».

– «وما رأيه بذلك»؟

– «تقبل واقع الحال مع مرور الزمن. لكنه يحب ابنته جداً، وستميل أنت اليه حين تراه. هو لا يؤمن بنظرياتنا حول الحياة والتطور. وبقدر ما يتعلق الأمر به، فإن أي تطور إنما هو للأسوأ، نوع من الانحدار نحو الفوضى».

وقال عدنان بصوت مضخَّم: «البشر مركَّب من أنواعٍ مختلفة من الشر، ولن يمكن لشيء في العالم، سوى أشد نظم الحياة صرامة، أن يدخل قطرة واحدة، مجرد قطرة واحدة، من الخير في هذا المركَّب. هذا هو رأي عماد النفوي بالانسانية».

فقالت سلمى: «لديك ما يكفي من الأسباب لتتذكر ذلك».

فرد عدنان: «لا شك. فالمركَّب الذي هو أنا، حسب رأيه، هو مركّب شر خالص. لكن عماد النفوي يفضّل ألاّ يعلق على الفساد والقسوة والفقر والشر المستطير في حياتنا». كان صوت عدنان قد غدا مريراً.

– «لا تضجرنا يا عدنان».

– «أنا آسف. فكرتي قديمة قدم الخليقة. وهذا شأن كل الأفكار العظيمة».

– «وسيأتي يوم من الأيام تؤكدون فيه على معاني أفكاركم، وذلك بشنقنا في حدائقنا... وضحكت. عدنان أيضاً ضحك: «إن كان لا بد من ذلك»..

– «هنا يكمن خطؤك وخطأ كل أتباعك من أبناء الشوارع. أنتم تتصورون أنفسكم متمردين قادرين على سفك الدماء. تعتقدون أن الأمر هو كأمر هؤلاء الحمقى الذين يذبحون أخواتهم وزوجاتهم بالسكاكين ظناً منهم انهم يخدمون قضية الفضيلة». ثم وقفت، وبدا عليها انها تذكرت شيئاً فجأة، عن إذنك، وسارت نحو البهو، وسمعتها تدير قرص التلفون.

قلت لعدنان بصوت خفيض ان سلمى قد وضعته في مكانه، فقال: «هراء. هذا هو صوت الخوف». ثم وقف وأعطاني سيكارة أخرى من الصندوق المصدف وأخذ هو واحدة.

عادت سلمى بعد دقيقة أو اثنتين، وقالت: «كلهم عدميون يا سيد جميل، كلهم عدميون». ثم أضافت بلهجة عابرة، كما لو ان الأمر لا قيمة له إطلاقاً: «تلفنت لعماد بك لأقول لك انك وافقت على تعليم ابنته».

لا أذكر انني وافقت، إلا انني لم أصححها. سألتني: «أتلائمك الساعة الخامسة مساء الغد؟ إن تنتظر في شقتك فسيأتي سائق آل النفوي ليأخذك. أعطيت عنوانك لعماد بك».

– ٩ –

حسب الاتفاق، وفي الخامسة من مساء اليوم التالي، أخذتني سيارة «همبر» سوداء إلى شارع جعفر، واستقبلني عماد الدين النفوي، أو عماد بك كما يدعوه الجميع، في مدخل بيت ذي طابقين يقع وسط أشجار النخيل والبوكالبتوس. كان للبيت حديقة واسعة حسنة التشذيب، يغطي أرضها العشب، وفيها ممر مرصوف تحفه الأزهار. كان عماد بك طويلاً شاحباً قاسي الملامح، وله أنف طويل وفم كبير يميل إلى الزرقة. وكان يرتدي عباءة فضفاضة بنيّة اللون أستطيع أن أرى تحتها كلما حرَّك ذراعيه ملابسه الأوروبية. قدم لي يداً ناعمة رقيقة لمصافحتها وبالغ بالترحيب بي، ورغم أني لا أتقن هذا النوع من المراسيم إلا انني جهدت لمقابلة كلماته الكريمة بمثلها.

وقادني إلى غرفة صغيرة تغطي جدرانها الكتب التي بدا انها كلها بالعربية والفارسية والتركية.

أعطيت لعبد مهمة استقبالي عند الباب. وكانت سيارة آل النفوي «الهمبر» تأخذني إلى البيت وتعيدني كل مرة بدون انقطاع؛ وإذا صادف أن عماد بك يستخدم السيارة خلال الساعة التي تتلقى سلافة فيها الدرس فإن عبد يأتي بي بسيارة أجرة. وكان من عادته أن يفتح الباب لي ويصحبني باحترام لا حدّ له لمكتبة سلافة، ثم يتسمر على مقعد حتى تنتهي الساعة، ويرافقني بعدها نحو الهمبر المنتظِرة، ويفتح بابها وينطق «في أمان اللهس وهو يغلق الباب خلفي.

ولكن ماذا عن سلافة؟

مهما تكن الأفكار التي دارت بذهني فإن سلافة، خلال بضعة الأسابيع الأولى، لم تظهر أيّ ظل لشكوى أو استياء. كنت أذهب مرتين في الأسبوع لتلك الغرفة المطلة على دجلة، لأجد كل مرة أنها قد أدت من العمل أكثر مما طلبت إليها. غير ان الاضطراب بدأ يساورني. كنت أمنع نفسي دائماً عن معاملتها معاملة شخصية. فقد كنت أعرف انني كلما سرت في ذلك الممر المرصوف الممتد من الباب إلى البيت إنما كنت أسير على أرض متفجرة.

إلا أن الهرب من عيني سلافة كان مستحيلاً. فرغم أنني كنت أجلس على بعد خطوات منها، ولا أقترب منها إلا لماماً، عند رف الكتب عادة، بحيث أسمع أنفاسها وأشمّ عطرها الخفيف، عرفت أننا قد أصبحنا ضروريين لبعضنا: وصرت أرغب في إطالة مكوثي معها، وأتمنى، حالما أتركها ، لو أعود إليها مرة أخرى. ثم أخذت الأيام التي تمر بين الدرس والدرس ترهقني بالشعور بالفراغ، أصبحت كالهوة الكريهة التي يجب ملؤها.

– ١٠ –

بعد ذلك المساء، كنت كلما ذهبت لتدريس سلافة أتوقع أن أجد معها سلمى التي تظل معنا لبضع دقائق تتحدث فيها عن كتاب لعلها استلمته حديثاً من مكتبة في أوكسفورد، أو عن بعض الناس الذين جعلت أتعرف عليهم – عن طريقها في الغالب. فما أن يدخل المرء الدائرة السحرية لمجتمع الكوكتيل في بغداد حتى يظل داخلها ما دامت به طاقة على ذلك. وما أسرع ما صرت أدعى لحفلات يقيمها أناس لم أكد أسألهم عن حالهم، وفي أغلب الأحيان كنت أجد أحمد وسلمى الربيضي هناك. فهما لا يملأن الحفلات فيما يبدو. أما عدنان وحسين فكان يسرهما أن يسخرا من ذلك النمط من الحياة: عدنان برفضه الواعي لها، إذ يقول عن عقيدة: «أنا أجد في المقاهي الواقعة على النهر أناساً أمتع مما أجد في حفلات الكوكتيل، أناساً أستطيع التحدث معهم حديثاً نافعاً». أما حسين فبشعوره بأنه مبعد عنها لأن المجتمع يتجاهله تماماً.

كان عدنان في أحد الأيام في غرفتي عندما أدخلت صاحبة النزل رجلاً يحمل باقة من الورود الصفراء. وقال الرجل وهو يقدم لي الباقة الجميلة كالعاشق: «تقول السيدة أنها تتمنى لك الشفاء العاجلس» فاعتراني خجل شديد لأن السيدة المشار إليها كانت سلمى، وكان الرجل سائق سيارتها. ويعلم الله ماذا دار بخلد عدنان الذي يعرف الرجل. كل ما كنت قلته في غرفة سلافة في الليلة السابقة هو أنني أحب الزهور الصفراء، فقالت سلمى التي كانت موجودة: «عندنا الكثير منها». ولم أكن مريضاً. لكن كان لا بد من مبرر لإرسال الزهور، في نظر السائق على الأقل. وقال عدنان وهو يدس أنفه الكبير بين الزهور: «خمر وورد وسبع جثث».

بعد يومين، حوالي منتصف الليل، رن جرس التلفون بينما كنت أخلع ملابسي استعداداً للنوم. رفعت السماعة وقلت: «جميل فران يتكلم».

فهمس صوت نسوي راعش: «هلو».

– «نعم»؟

فعادت الهمسة تقول: «جميل فران»؟

– «نعم».

لحظة صمت.

قلت: «إيه؟ من»؟

– «غير مهم».

– «لا»؟

– «ما هو ذلك الصوت»؟

– «صوت بوق السيارة يا سيدتي. إن تمسكي بالسماعة طويلاً فستسمعين أبواقاً كثيرة». صمت. «غرفتي تشرف على شارع الرشيد مباشرة».

– «أعرف».

– «ومن أنت»؟

– «غير مهم... مع السلامة». وسمعت صوت التلفون يغلق.

مرت لحظة أصابتني خلالها حيرة مطبقة. ثم ضحكت. فلا بد أنها إحدى تلك اللعب السخيفة التي تحب بعض البنات العابثات لعبها على الناس.

رن جرس التلفون في الليلة التالية حوالي منتصف الليل أيضاً. وجاءني نفس الصمت الموحي عبر الأسلاك.

قلت بلهجة وضعت فيها كل ما استطعت من الاغراء: «من أنت»؟

فكان الجواب المضيء هو: «قل شيئاً».

وفجأة ساورني الشك في أنها قد تكون واحدة من طالباتي في الكلية. وفكرت انني ربما أستطيع معرفة الصوت لو أطلت اللعبة.

قلت: «أتمنى لو تقولين أنت شيئا».

– «لا أستطيع».

– «أليس لديك شيء تقولينه إذن»؟

– «م م م م... لا».

– «هل تلفنت لي في الليلة البارحة»؟

– «نعم».

– «ماذا تريدين»؟

– «لا شيء».

– «إذن فاعلمي ان هذه لعبة سخيفة جداً، كما أن لدي أعمالاً تشغلني».

– «آسفة».

– «يجب أن تكوني آسفة».

– «تصبح على خير».

فأعدت السماعة بحدة إلى مكانها.

جاء سائق آل النفوي عصر اليوم التالي وأخذني إلى البيت، حيث استقبلني عبد على البوابة وقادني إلى غرفة سلافة، ثم تسمر على مقعده. وقالت سلافة وهي تنظر إلى النهر عبر النافذة: «كنت أتأمل النهر. دجلة آخذ في الارتفاع هذه الأيام، ولكني لا أظن اننا سنرى فيضاناً هذا العام». وقفت بجانبها ونظرت إلى مدى النهر الواسع الذي كان يجري بمحاذاة البيت بلونه الطيني من جانبنا بينما هو على الجانب الآخر ذو زرقة حريرية. كانت الأشعة تتراقص عليه فكأنه قطعة رائعة من نسيج مقصَّب. وهوى نورس ومسَّ الماء. ثم طار بعيداً.

قلت: «لا يراه المرء يجري في الواقع، كأنه بحيرة».

– «لكنه يجري ويجري ويجري، كالدقائق والساعات. كالحياة ذاتها».

– «كان الماء أيام دراستي في الكلية يسحرني سحراً. وقد بلغ من سيطرته على أفكاري انني خشيت من إراق نفسي في نهر الركام. لكن النهر لحسن الحظ كان أصغر وأضحل من أن أغرق فيه».

– «أما أنا فلم أخش الغرق في يوم من الأيام. لا شك أن أول شيء رأيته لحظة ولدت كان دجلة. كم أتمنى لو أستطيع السباحة فيه. لكنني أحب النظر إليه أيضاً. فهو يعكس حالاتي النفسية. وأحياناً أعكس أنا حالاته. أليس ذلك مضحكاً؟ يبدو أحياناً تعيساً متجهماً، فأغدو مثله، دجلة لا يتوقف عن الجريان. يجري منذ عشرة آلاف عام، كالحياة. النهر يجري نحو المحيط، فأين تجري الحياة»؟

– «أظنها تجري نحو ظلمة أبدية».

– «المحيط إذن هو الظلمة. هو الموت. أما النهر فالحياة. القرآن يقول: (وجعلنا من الماء كل شيء حي). هل قرأت القرآن»؟

– «قرأت أجزاء منه».

– «قال لي أبي عندما اقترح اسمك لتدرسني لو انك لم تكن مسيحياً لما سمح لك بالانفراد بي».

– «الانفراد؟ وماذا عن المحترم الجالس هناك»؟

– «لا يكاد يصح اعتباره شخصاً ثالثاً، عبد المسكين».

عندما رن جرس التلفون في المساء في الساعة المعتادة شعرت بغضب شديد. وأخذت السماعة، عارفاً على وجه اليقين من هو المتحدث: وصرخت: «من»؟

فضحك الصوت الغامض وقال: «جميل»؟

– «نعم»! وتوقعت الصمت الذي كنت أنوي إغلاق التلفون على أثره.

– «ألا تستطيع تمييز صوتي»؟

– «لم تقولي شيئاً أكثر من نعم ولا».

– «النهر هو الحياة. يجري كالدقائق والساعات»...

فاعترتني رعشة بمؤخّرة عنقي انتشرت في كل جزء مني.

– «سلافة»!

– «وجدت رقم تلفونك عن طريق الصدفة».

– «ليس رقمي مذكوراً في الدليل. هل سألت عاملة التلفون»؟

– «لا. وجدته في غرفة نوم سلمى ضمن قائمة أسماء وأرقام».

– «يا خبيثة». وخفق قلبي بوحشية على الضد من إرادتي.

– «ألست غاضبا»؟

– «لا، لست غاضباً على الإطلاق. ولكن لمَ لم تقولي انك أنت التي تتلفنين لي من قبل»؟

– «أردتك أن تحزر أولا». كان في صوتها نغمة مرحة لم أكن أعرف انها من طبيعتها.

قلت: «والآن»؟

– «آ... لا شيء في الواقع».

وتملكتني رغبة في أن أصرخ بالتلفون: «أنت أجمل مخلوق في هذا الجانب من دجلة». لكنني لم أستطع، ولم أعرف ماذا أقول.

أخيراً قلت: «هل... آ... هل أنت وحدك »؟

– «نعم. نامت أمي، أما أبي فلم يعد بعد من الخارج»

– «وعبد»؟

فضحكت: «ينام مبكراً حين لا أخرج».

كان صوتها ينضح رقة وفتنة، وكانت فيه هزة ساحرة من الشعور بالذنب، كما لو اننا التقينا في خلوة أمينة. وتساءلت عما كان والدها سيقوله لو انه عرف بالأمر.

فقالت: «كان والدي في البيت عندما تلفنت لك في آخر مرتين».

– «هذه حماقة منك».

– «أنا آسفة. هل أزعجك»؟

– «لا، لا».

– «لا يهمس. ولاحت في صوتها نبرة غضب. «تصبح على خير».

– «ولكن سلافة ؟».

كان الطرف الثاني قد صمت.

تهاويت على سريري، وشعرت، في غمرة الخوف والنشوة والألم، بالغباء والعجز التامين.

لم تتلفن لي سلافة بعد ذلك حتى رأيتها مرة أخرى. ولم تشر هي إلى المكالمات، ولكنني لم أستطع التظاهر بأني نسيت.

سألتها: «أكنت تنامين جيداً»؟

فاتسعت عيناها وبان فيهما الذعر. وقالت: «لا أدري».

– «لم تتلفني ثانية».

– «كنت سخيفة. أنا آسفة جدا».

– «ليس هناك من خطيئة في أن تتلفني كلما شعرت بالضجر أو الأرق».

ثم قلت لنفسي: «من تراك تخدع»؟

– «لن أتلفن لك ثانية أبداً».

– «لا تكوني سخيفة. يمكنني أن أتلفن لك بين الحين والآخر إن أردت».

فقالت وقد تملكها الرعب: «لا تفعل ذلك أبداً! قد لا أكون هنا لأرد عليك. وإذا عرف والدي جن جنونه، وتكون تلك نهاية دروسنا الانكليزية». وأضافت بعد لحظة صمت: «أرجو ألا تخبر سلمى هي الأخرى بأنني قد تلفنت لك».

كانت تكافح في الشبكة التي وقعنا بها، إلا ان الشبكة كانت تزداد ضيقاً كل يوم. وتعلّق لحمي ثقيلاً على عظامي ولم أستطع تحمّل الألم المكبوت. أما عبد فكان على كرسيه في الزاوية حاملاً سيفه الخفي المصلت على رؤوسنا. وكان دجلة يشع من خلال النافذة كما لو انه مزروع بمليون عين راعشة.

وفجأة جاء صوت عماد، خشناً، واثقاً بنفسه، من خارج الغرفة. ودخل أبو سلافة متجهاً نحوي تتبعه سلمى، فهبط قلبي مثقلاً بالإثم.

قال وهو يصافحني: «أستاذ جميل، يؤسفني ان الفرصة لم تسنح لنا طيلة هذه الأسابيع لأن نجلس معاً ونتجاذب أطراف الحديث. عبد!» – واستدار نحو الخادم – «هات لنا شاياً وكعكاً». فخرج عبد طائعاً.

سألت سلمى: «هل انتهى درس اليوم»؟

قال عماد بفظاظة محبوبة: «دعونا من كتبكم. لنذهب إلى غرفة الجلوس، فهذه الغرفة صغيرة جداً».

وضع يده أثناء نزولنا على كتفي – كان طويلاً جداً – وقال بعطف كبير: «كنت مريضاً طيلة أسابيع. هل أخبرتك سلافة؟ يبدو ان قلبي لا فائدة منه. لكنني سأوصل الأطباء كلهم إلى قبورهم قبل أن أموت». كان يطفح بالصحة المستعادة.

قالت سلمى: «نريد أن نرى كيف تسير دروس سلافة».

ولما لاحظت ، الطرف الذي يتعلق به الموضوع لم يأت بعد فإنها ذهبت لمناداتها.

قلت: «سلافة طالبة ممتازة. كان يجب أن ترسلها للكلية، كغالبية صديقاتها».

فقال عماد: «لا، لا، أخشى ألاّ أتفق معك يا أستاذ. أعرف انك وسلمى تفكران بأنني عجوز رجعي أحمق. غير أنني لا أؤمن بكل هذا الجنون من أجل التحول إلى الأساليب العصرية والغربية. ما دمت حيّاً سأتمسّك بتقاليد عائلتي. لعلك لا تعرف أنني سليل أسرة من الأدباء وإن بعض أجدادي كانوا من حكام هذه المدينة. لن أجعل الناس يقولون ان ابنتي قد ذهبت للمدرسة مع حشد من الرعاع. ثم ما وجه الخطأ في التعليم الخصوصي؟» وفي تلك اللحظة دخلت سلمى وسلافة، وأضاف عماد: «التعليم الخصوصي يتفق وأفضل التقاليد الارستقراطية. أليس كذلك يا سلمى»؟

فقالت سلمى وهي تبتسم ابتسامة ساخرة خفيفة: «كما تقول. كما تقول». لا شك انهما قد تناقشا طويلاً حول الموضوع في السابق.

أجلس عماد ابنته إلى جانبه وربت على ظهرها باعتزاز من يمتلك شيئاً ثميناً: «أتعرف لماذا أريد هذه الفتاة أن تتكلم الانكليزية؟ هذا هو سري الصغير! أنا ذاهب إلى انكلترة قريباً. إذ ليس قلبي على ما يرام هذه الأيام. أنوي أن أستشير بعض الأخصائيين هناك، وسآخذ سلافة معي لتعنى بأبيها العزيز».

فصرخت سلافة بفرحٍ طاغٍ: «بابا! أتعني ما تقول»؟

– «طبعاً يا عزيزتي. ما كان أشد تعاستي حين ذهبت هناك في السنة السابقة للحرب، بسبب جهلي التام للانكليزية. ولولا المستر دونالدسون، الذي عرفته قبل ذلك لسنوات عديدة حين كان ضابطاً سياسياً في العراق، لكان الأمر بالغ الصعوبة بالنسبة لي.

ثم ربت على ظهر ابنته مرة أخرى فضحكت وقالت: «أستاذ، هل نطلب من والدي أن يصغي لنا ونحن نقرأ أبيات الملك لير أثناء جنونه في الفلاة»؟

فقال بكل جدية: «أعرف أنه شاعر عظيم». وأخرج مسبحة صغيرة لا تتناسب وضخامة حجمه. إلا أن يديه كانتا صغيرتين رقيقتين. «ولكن أين يقف من شعرائنا نحن»؟

لم يكن علينا من حسن حظنا أن نجيب على ذلك السؤال، فقد جاء الشاي في تلك اللحظة مصبوباً في أكواب، كما أن عماد تذكّر الشعراء الذين قرأهم وأعجب بهم. قال: «أتعرف لماذا تعلمت الفارسية؟ من أجل أن أقرأ حافظ بلغته الأصلية. هذا شاعر حق يا بنيّ. هل تعرف مثنوي «الغزال الشارد»؟ غالباً ما أفكر أننا لم نتقدم رغم كل ما حصل في التبدل في حياتنا. أذكر لي شاعراً معاصراً يضاهي حافظ. عندنا سينمات، وباصات حمراء مزعجة الصوت، وثلاجات. ولكن ما الذي عندنا من أمور الروح»؟

كنت قد وضعت كوبي على المنضدة الجانبية الصغيرة، فقدمت لي سلمى قطعة كعك من الصينية التي كان يحملها عبد باحترام.

قلت: «نحن راكدون يا سيدي. وليس لنا أن نخدع أنفسنا بالسينما والثلاجات: فنحن لم نصنع شيئاً منها. نحن نستوردها فقط. إلا أننا نأمل أن تتمكن كلياتنا من إبداع بعض هذه الأشياء – أشياء الروح على الأقل».

– «أرجو ألا تغضب إن قلت انني لا أؤمن بشباب اليوم. أتعرف السبب؟ لقد تخلّوا عن الفضائل القديمة ولم يتخذوا لأنفسهم فضائل جديدة. من السهل أن يرى المرء أنهم فقدوا كل شعور ديني، على سبيل المثال. وإذا فقد الدين قوته في حياة الناس، فقدوا وازعهم الأكبر، ولا يفعل في الحياة عندئذ إلاّ الشر».

فقالت سلمى وهي تبتسم ابتسامة خبيثة: «أي شيء يفعل خير من لا شيء».

فقال عماد باستياء ظاهر: «هذا ما يقوله عدنان، ذلك الشاب التعيس».

عندما ودعت عماد وسلافة كان وجه الفتاة جامداً، وشعرت ان عينيها قد تبعتاني. ولكم تمنيت أن أستطيع الرجوع إليها لأهزها بعنف كي أخرجها من جمودها الأشبه بجمود التماثيل، وكي أرى وجهها وهو يتشقق إلى ألف خطّ من الألم.

كان عبد قد سبقنا أنا وسلمى، وفتح باب البويك لها لتجلس خلف المقود.

وبعد أن جلست بجانبها سألتها: «أين السائق»؟

فقالت: «أفضل أن أسوق السيارة بنفسي أحياناً. أظن انك أدركت ما الذي يدور في فكر عماد». وزأر محرك السيارة ثم انطلقت بسيرها المريح.

– «ثمة قلاقل سياسية على وشك الانفجار بين طلاب الكليات لأن عدداً منهم قد اعتقلوا. بل ان أحد المعتقلين من طلبتي».

– «نعم. ولكنني أتيت لأرى عماد بشأن قضية قد تهم:». ونظرت نحو نظرة جانبية، ورأيت على شفتيها ابتسامة.

– «حقاً»؟

– «بشأن عدنان».

– «ما به»؟

– «يورّط نفسه في كل مشكلة».

– «لم أكن أعرف أن بوسع عدنان أن يورّط نفسه بنجاح. ماذا فعل»؟ وتذكرت تلميحاته التآمرية العديدة.

– «الشرطة تراقبه».

– «عدنانس؟

– «نعم. إنه مشبوه».

فقلت غاضباً: «ولكنه ليس شيوعياً».

فقالت: «أعرف ذلك». كنا قد وصلنا باب المعظم، فاستدرنا يميناً نحو شارع الرشيد: «ولكنه قد يعتقل في أي وقت إن لم يلازم جانب الحذر».

مرت برهة ظلت فيها صامتة. كنا قد دخلنا في زحمة السيارات الواقفة في الشارع بسبب توقف المرور. وكانت الأبواق المزعجة تنطلق من ورائنا. وخطر لي أن ملاحظتي لم ترق لها.

ثم سألتني: «هل تعرف ان عدنان هو ابن أخ عماد»؟

– «ماذا؟ مستحيل. عدنان لا يحمل اسم آل النفوي».

– «عدنان يرفض ذلك».

– «تقصدين انه يرفض أن يقرن اسمه باسم عمه»؟

– «بالضبط».

وصلنا ساحة فيصل. وكان الجسر على يميننا. وكان ثمة أربعة من الشرطة يسيّرون السيارات





التي نفد صبرها بإشارات إيقاعية أشبه بحركات راقصي الباليه.

قلت: «حدثيني بالمزيد».

فسألتني: «ما رأيك بنزهة قصيرة بالسيارة»؟

– «عظيم».

فاستدارت يميناً نحو الجسر، ثم نحو الضواحي الغربية لمدينة بغداد، بين المقاهي، والسينمات، والحوانيت القميئة، حتى وصلنا طريقاً ضيقاً مستقيماً تحفه أشجار الكينا المورقة. وبلغ بنا هذا الطريق إلى جسر صغير تسير فيه السيارات باتجاه واحد فقط، معلقٍ فوق مستنقع ويحرسه مركز شرطة وتمتد خلفه سهول الريف الخضراء.

قالت: «عبرت دجلة معك»!

فسألتها: «وهل يشبه هذا عبور الروبيكون»؟

– «بل أسوأ».

لم أكن واثقاً من قصدها، ولكني شعرت ببوادر ما كان سيحدث. توقَّفَتْ عن الحديث عن عدنان، وزاد الطريق الطويل المهجور من شعوري بوحدتي معها.

سألت: «هل يؤدي هذا الطريق إلى بابل»؟

فأجابت: «نعم». ثم تباطأت حتى ظننت أنها ستتوقف. غير أنها لم تقف. «لم يكن بوسعي قبل الآن أن أجعلك تخرج معي». ووضعت يدها اليمنى المترددة على ركبتي بينما أخذت تسوق السيارة باليد اليسرى فقط. ورغم أنني ارتبكت في البداية إلا انني استسلمت للدعوة، ولم أقاوم. وتابعتني عينا سلافة مثلما كانت تتبعني يد ليلى الميتة، ولكنني رفضت الوقوع في شركهما.

قلت: «آه يا سلمى، إنني رجل تعب».

– «أنت أبله! إنك شاب، وكل العالم تحت قدميك». وعادت يدها إلى المقود لتتمكن من الاستدارة في منعطف، ثم عادت وحطت ببطء وتردد على ركبتي.

– «أي عالم، أي عالم»؟

– «أنت حر. أنت لا تدرك كم أنت حر. ستتحطم حياتي لو مر شخص ما ورآني معك الآن».

– «استمري، بالله عليك».

– «يجب أن أكون الآن في البيت».

– «إذن، عودي إلى البيت».

– لا أستطيع. لا أستطيع. جميل. أنت فظيع. منذ أن عدت من الولايات المتحدة وأنا ميّتة».

زحفت نحوها ووضعت ذراعي حول كتفها: «أعرف ماذا تقصدين».

فارتعش كل كيانها وصرخت: «لا أستطيع أن أسوق!» وتوقفت السيارة وقفة عنيفة فجائية وارتمت سلمى بين ذراعي.

قبلت فمها بدون رغبة ولا عاطفة. ولما كنت لم أمسس امرأة طيلة أشهر عديدة فقد أمتعتني نعومة بشرتها ودفء لحمها تحت يديّ. وتلذذت يداي، المستقلّتان عن باقي جسدي، بملمس ذراعيها، وعنقها، ونهديها. وقبلتني هي ثانية بعنف وجوع، إلا أن لحمي كان خالياً من كل رغبة، وكان ثمة في دماغي فراغ – فراغ كبير بارد. وبينما كنت أقبّلها وتتلمس يداي طريقهما فوق جسدها كله خطر لي أنني إنما كنت أعيد ممارسة بهجة من بهجات الماضي: إنها عملية أحفظها عن ظهر قلب، فأعيدها، لا حدث جديد.

قلت: «يجب أن نمضي. فوجود سيارة على جانب الطريق لا بد أن يستلفت انتباه المارين بها».

فغمغمت: «نعم، نعم». وكان في صوتها بحّة الرغبة. وخلصت نفسي منها ونزلت من السيارة وذهبت للباب الثاني وجلست خلف مقود السيارة. ثم حركت السيارة بينما كانت سلمى متشبثة بي.

سألتني: «هل تحبني؟ ولو قليلا»؟

– «هل لا بد من أن تتحدثي عن الحب؟» وأردت أن أقول: «الحب، الحب، الحب – من يريد أن يحب مرة أخرى»؟ إلا ان ذلك كان سيبدو مبالغة فارغة.

– «من كان آخر من أحببت»؟

– «هذا سؤال مضحك يا سلمى. إلا انني سأجيب عليه. آخر من أحببت قتلت في القدس».

– «ما أفظع ذلك. ألا زلت تحبها»؟

– «وما يدريني»؟

– «لم تقل شيئاً عنها أبداً. ماذا كان اسمها»؟

– «سأحكي لك. سأحكي لك كل شيء عنها. ولكن هل يسرك ذلك»؟

– «سأحب كل شيء أحببته – حتى ذكرياتك».

يا لها من أكذوبة! أتراها تحب سلافة لو أخبرتها عنها؟

كنا نقترب من بستان كبير تملأه آلاف أشجار النخيل التي تبدو حين تقع عليها أشعة أضواء السيارة، كأنها أشباح رهيبة تهدّد بالخطر. أما السيارة فكانت تهتزّ بقلق وتختضّ على الطريق المليء بالحفر.



– ١١ –

دُقَّ التلفون، وجاء صوت برايان عبر السلك تصحبه نغمة فيها رنين غدت أشد وضوحاً، وبرماً، وحلاوة، لأنها غير مجسّدة.

قال: «هل لك أن تسعد رجلاً وحيداً؟ دعنا نراك. هل تستطيع المجيء إلى الكافيه سويسّ»؟

كنت على وشك الاعتذار، إلا أن صوت برايان استخرج في ذهني صورة عدنان بقرينة ما غامضة: كانت سلمى حتى تلك اللحظة قد طغت عليه وأرجعته إلى مؤخرة ذهني. وتذكرت تلك اللحظة ان عليّ أن أراه وأخبره بما سمعت.

قلت: «أنا آت حالا».

وجدت برايان في المقهى جالساً وسط حلقة من الشباب يقولون له ان لغته العربية التي يتمرن عليها معهم أروع من أن تصفها الكلمات. لكنهم كانوا في الواقع أكثر اهتماماً بالتمرن على انكليزيتهم معه. اشتركت معهم لبضع دقائق، ولكني قلت لبرايان قبل أن أشرب شيئاً إن عليّ أن أرى عدنان، وسألته إن كان يحب أن يذهب معي، فوافق. وتركنا جماعة الشباب وسرنا في شارع الرشيد.

سألني برايان: «أين يسكن»؟

قلت: «لا أعرف. ولكنني واثق من أننا سنجده في إحدى الكازينوات الواقعة على النهر».

– «أشتهي دائماً الجلوس في أحد هذه المقاهي. الجمهور يثيرني جداً. غير انني أشعر بأنني غريب هناك، ولست أجرؤ على محادثة أحد».

– «ولكن عربيتك تحسنت إلى حد كبير».

– «أوه... دعك من هذا المزاح. ما تزال أكثر تعثراً وابتدائية من أن تصلح لحديث مقبول».

قلت: «أرجو أن نجد عدنان».

وقد وجدناه. كان هناك مع حسين وعبد القادر وكريم. وقدموا لنا اثنين أو ثلاثة آخرين باعتبارهم طلبة حقوق. واستقبل حسين برايان بذراعين مفتوحتين. أما أنا فسحبت كرسياً وجلست بجانب عدنان.

سأل عدنان: «هل جربت الشلغم المسلوق في حياتك؟ شَلْغَم...» وراح يردد الكلمة بإغراء.

فأجاب برايان: «لا أحسبني ميّالاً إلى التجربة».

فضحك الشباب كما لو أن تجربة الشلغم أمر مضحك حقاً.

– «لكن يجب أن تجرب شلغمنا. أنت أيضاً يا جميل. لا تترفّع عنه. فالشلغم أكلة خاصة يجب أن تتعود عليها».

كنت قلقاً نافذ الصبر. وقد أثارني الحديث المتمهل السخيف. وكانت أغاني الراديو الصاخبة، الحزينة، الصادرة عن القلب، تنهمر علينا خلال ضجيج الناس، مما أشعرني بتوق غريب إلى صمت مكتوم الأنفاس في قاعة كبرى شاهقة عالية السقف، يخشى الجالسون فيها التكلم لئلا يبدّدوا الصمت. لكن هناك كان عدنان، جزءاً من الضجيج، ينافس الراديو في إطلاق القهقهات المحمومة والصيحات العابثة. وكثير من أصدقائه، كحسين المفلس، وعبد القادر ذي الوجه الجمجمة، كان يصوّر نفسه بطلاً، منقذاً، متآمراً لخير الشعب، يريد الذوبان فيه، وتحويل كل ضجيجه وصخبه إلى ترتيلة فرح من أجل عهد من الحب والعدالة للناس أجمع. أما أنا، في غمرة استيائي وشوقي إلى صمت رهيب يلف العالم، فقد تصورت عدنان حين نظرت إليه، وهو يصفع شفتيه بيديه وينظر حواليه بعينين مذعورتين، وإذا هو يطارده قطيع من الكلاب الجائعة، ويركض بعيداً، بعيداً، في صحراء شاسعة لا نهاية لها.

قلت فجأة وأنا أقف: «عدنان، أريدك في كلمة».

فنظر الجميع إليّ.

سأل عدنان: «ماذا هناك»؟

– «أخشى أن عليّ أن أعود إلى البيت. هل لك أن تأتي معي».

– «هل من أمر»؟

– «لا. ولكن له لك أن تمشي معي»؟

– «لا بأس».

فقال برايان: «سنلحق بكما».

وعندما تركنا «الكازينو» سار هو وحسين خلفنا تفصلهما عنا عدة ياردات. وكانا منهمكين في نقاشٍ حامٍ بالعربية.

تمشينا على الرصيف، مارّين بعدد من الكازينوات والمقاهي، إلى أن وصلنا

البنايات الجميلة الجديدة التي تمتد بخط منحن يحاذي مسار دجلة العريض.

قلت: «عدنان، فهمت انك تحت المراقبة».

فقال: «تحت المراقبة»؟

– «من قبل الشرطة».

– «حقاً؟» لم يدهش، مما خيّبني. قلت: «هكذا سمعت».

– «لا تهتم للأمر، قلت لك انهم يراقبون كل الناس هنا – كل الناس المهمين. هذا داء العصر».

– «أعتقد أنه أمر فظيع».

– «اوه، أنا لا أهتم بذلك مطلقاً. بل إنه يضحكني».

– «قل لي بدون مواربة: ما هو النشاط السياسي الذي تقوم به»؟

فقال مراوغاً: «ككل أحمق في المدينة، أثرثر، وأقطع أنفاسي في بحث كل شيء يُربط أو يُحل».

– «وتدعو هذا سياسة»؟

– «وما السياسة غير ذلك عندنا؟ أتظننا قادرين على فعل أي شيء؟» ثم توقف قليلاً وعاد للتساؤل: «هل تعرف أصل كلمة «السياسة» في الانكليزية»؟

– «أحسبها مأخوذة عن الكلمة الإغريقية (بولس) التي تعني مدينة».

– «هذا ما اعتقدته. ولهذا، تعني السياسة علم إرادة المدن والمواطنين. ترى ما هو أصل كلمة «السياسة» في العربية»؟

ونظر إليّ فرأيت في الضوء الخافت ومضة من اللذة في عينيه.

قلت: «الشيء الوحيد الذي أستطيع تذكره هو العناية بالخيول. وهذه أيضاً سياسة».

– «بالضبط. العناية بالخيول والتحكّم بها ؟ هذه هي سياستنا. وهذه هي أفكار سادتنا عنا! هل هناك ما هو أشد إثارة للضحك في تاريخ الانسانية بأجمعه؟ خيولٌ وسوّاس خيولٍ!» وضحك. ثم قطع ضحكته. «لنأمل أن الخيول لن تجن فتلقي براكبيها أرضاً».

– «ما هذا الذي تقوله عن الخيول»؟ كان ذلك صوت برايان يصيح خلفنا عن بعد. وقفنا ليلحق بنا هو وحسين. وقال برايان: «هل ترى؟ أنا قادر على معرفة موضوع حديثكما».

وأشار حسين إلى مقعد بجانب النهر، وقال بالانكليزية مشدداً على مخارج الحروف: «فلنجلس هنا برهة من الزمن».

فقال برايان: «أتمنى لو تتحسن عربيتي بمثل ما تتحسن انكليزية حسين».

فقال حسين بالانكليزية بنفس اللهجة: «صبرك! صبرك» ثم أضاف بالعربية: «لم يقتلنا غير الصبر».

سألت برايان: «هل تعرف توفيق الخلف»؟

فأجاب: «لا أظن أنني أعرفه».

فقلت: «أي زوج ستشكلان! عدنان، يجب أن تعرّف برايان وتوفيق على بعضهما».

وبدا عدنان مسروراً لتغيير الموضوع. قال: «توفيق عربي أصيل. وهو الذي يجب أن يعلمك العربية. إنه يرفض الاعتراف بأنه يعرف الانكليزية، وحقده أجمل من كل ما في العالم من حبّ عشائري حقيقي».

تحمس برايان للفكرة وقال: «لكن يجب أن أعترف لكم بأمر واحد. تذكرون فندق القمر الطالع؟ أنا أذهب إليه بين الحين والآخر».

فقفز حسين وصاح: «تحب فتيات بغداد»؟

فقال برايان: «لا أذهب هناك من أجل الفتيات. بل أقضي يومين أو ثلاثة كل مرة للتدرب على اللغة العربية مع النزلاء. فالكل يتكلم الانكليزية في الفنادق الراقية. ولهذا أضطر للذهاب إلى مكان مثل القمر الطالع. أنا وداود أصبحنا صديقين حميمين الآن، حتى لقد أهداني مسبحة».

فقال حسين بشيء من الصعوبة: «آ... إذن فلعلك تحب الغلمان؟» ثم كركر وأضاف: «كثيرون يأتون للشرق لأنهم يحبون الغلمان».

فقال برايان: «لا تكن سخيفا». وضحك.

قلت: «ان تتعرف على توفيق فلن تحتاج للتردد على القمر الطالع».

فقال: «يقول بعض الخدم هناك إنهم من الآشوريين، وهم لا يكفّون عن تذكيري بخرائب نينوى ونمرود. وقد صممت على كتابة شيء عن الموضوع. لماذا لا تكتب قصيدة عن الموضوع يا عدنان».

– «ماذا؟ عن بقايا التماثيل الضخمة التي تملأ نمرود»؟

– «نعم. كل تلك الثيران المجنحة و«الأرواح الحارسة» الصخرية، المنحوتة على شكل عقبان تزين أبواب مدينة كانت مركز امبراطورية فسيحة في يوم من الأيام. بوسعي أن أتصور آلاف الأسرى من شعوب كثيرة، وثرواتها، وهي تصب فيها تحت حماية تلك الآلهة العاتية ذات العيون الكبيرة. لقد تمثلت قوة شعب بأسره في عضلاتها الرائعة التكوين».

فقال عدنان: «أخشى أن شعبنا في الشمال قد وقف منها موقفاً مغايراً تماماً، لقرون عديدة. لقد اعتاد الناس أن يكسروها قطعاً يحرقونها – ليصنعوا منها الكلس، لأنهم يعبرونها صوراً للشيطان»!

فقلت: «ما أفظع ذلك! ولكن من لا يشعر بالدهشة الكاملة حين يرى لأول مرة ثوراً مجنحاً يبلغ حجمه عشرة أضعاف الحيوان العادي؟ إما أن ينحني له ويعبده وإما أن يعمل مطرقة الانتقام فيه ليحرقه ويتخلص منه».

فقال برايان: «لا أدري. التماثيل هذه تثير التأمل باعتبارها رمزاً لعوادي الزمن،

«هل لاحظت القرى الصغيرة التي تمسك بها مخالب الفقر، القرى التي تحيط بتلك الآثار»؟

– «نعم. منظرها محزن جداً. القرويون يضطجعون في الظل، بينما يلعب أطفالهم بالتراب، فيما يأكل الذباب عيونهم وأنوفهم، دون أن يعوا القوة التي تكمن دون حياة في تلك الكتل المغطاة بالأعشاب والأشواك».

فقال عدنان بحشرجة في الحلق تحولت تدريجياً إلى ارتعاش شقي: «لن تعرف شعورنا بهذا الصدد يا برايان. قد تكون مؤخراً بارعاً أو آثارياً رائعاً، قد تستطيع أن تخبرنا عن كل ملوك سومر وآشور، ولكن الأمر عندك في نهاية المطاف ليس أكثر من مغامرة جمالية. إنه خارج حياتك. يمكنك أن تستمتع به بهدوء وأن تنظمه ضمن أنماط تاريخية. وستذهب في النهاية إلى انكلترة وتتذكر كل شيء كتجربة، كاكتشاف، ولكن بالنسبة لنا – بالله كم هو مختلف. قد نعرف تفاصيل الماضي وقد لا نعرفها. لكننا نعرف انها هناك. نعي وجودها وسط حياتنا كروح لا يمكن طردها بالتعاويذ. التراب نفسه، سواء أكان يومض بخضرة الخصب أو بملح الإجهاد، يتضوع بعبق الماضي. هذا النهر يسير أمامنا مثقلاً بالذكرى. البوارج، والجيوش، والثروات، والدماء التي انحدرت مع هذه المياه تملأ حياتنا وتعذبنا. حتى لو لم ننظر إلى النهر فإننا نحس بها في دمائنا كمرض لا شفاء منه. نحن وارثو المجد والقذارة، وارثو ضجيج الفخر وأنين الأحزان والنواح. قد تستطيع يا برايان أن تلاحظ بعينك الناقدة سخرية القدر في تلاصق المتناقضات كالفلاحين ذوي العيون الدبقة وهم يجلسون وسط روث حميرهم على مرمى النظر من الأنصاب العظيمة التي شيدتها امبراطورية لا يفهمونها. إلا أن السخرية بالنسبة لنا وحشية. إنها تملأنا بالمرارة. إنها ألم يحطمنا، إنها تملأنا بالحقد واليأس. تملأنا بالأمل الطاغي ولكنها ترعبنا حين تجعلنا ندرك عجزنا»...

خيمت بعد ذلك فترة صمت طويلة. كان ثمة خيال يجري على صفحة النهر في الجهة البعيدة، وأغنية تترقرق فوق المياه، واهية، نائية، شجيّة. وكان صوت الراديو يأتي بين الفنية والفينة من المقاهي المتناثرة طوال الشارع، بينما تجأر خلفنا محركات السيارات وتئن. ودامت الأغنية الآتية من النهر فترة طويلة قبل أن تتلاشى.

قلت: «دعونا نذهب. لقد تأخرنا».

فقال برايان: «أنا ذاهب في الاتجاه المعاكس». ونادى سيارة أجرة وحيّانا مودعاً. أما نحن الثلاثة فقد عدنا مشياً حتى اقتربنا من الكازينو الذي غدت أضواؤه الآن خافتة. وفجأة أمسك عدنان بذراعي وقال: «ما الذي سمعته بالضبط عن كوني تحت المراقبة؟» فنظرت إليه لأرى وجهه: كان وجهاً متعباً وخائفاً حقاً.

أخبرته عن سلمى وعماد، فثار غضبه: «يا لأبناء العاهرات، هؤلاء الكلاب أبناء الحرام ؟».

فقلت: «من تقصد؟ سلمى وعماد يحاولان مساعدتك».

– «لا أقصدهما ؟ ليس هما على وجه التحديد. أقصد ؟ كل الناس، كل من تحت هذه السماء».

وقال حسين: «العَلَق الذي على ظهورنا». ثم بصق غاضباً.

– «اسمع يا جميل. هل تحب أن تأتي لترى أين أعيش؟ أنا أشعر بالذنب لأنني لم أطلب منك ذلك من قبل».

فقلت: «الوقت يقترب من نصف الليل، وأنا متعب جداً». ثم شعرت على الفور أن عليَّ أن أعود إلى غرفتي إن أردت أن أسمع صوت سلافة في تلك الليلة.

– «لا بأس. سأراك غداً لأصحبك إلى البيت». ثم استدار نحو حسين وقال: «ما رأيك بدست أخير في الدومينو؟» فوافق حسين.

حييتما مودعاً وتركتهما هناك.

لم تكن الطريق لتستغرق أكثر من عشر دقائق مشياً إلى البيت، إلا أنني خشيت أن تكون سلافة قد تلفنت رغم تصميمها السابق على ألاّ تفعل. لذا أخذت سيارة أجرة لكي لا أضيع وقتاً أكثر، وحالما وصلت هرعت صاعداً ودخلت الغرفة لاهثاً بعد صعود خمسين درجة.

بدا التلفون ميتاً. لم يكن ليرن. أخذت السماعة لأتأكد من انه يعمل ثم أعدتها. أخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً بانتظار رنين التلفون. آه، كيف نسيت أن أعود مبكراً؟ لعنة الله على عدنان. لعنة الله على سلمى. لعنة الله عليهم جميعاً. دماغي يتحطم إلى مائة ألم. ليلى قتيلة، وسلمى متزوجة، وسلافة بعيدة المنال. كان برايان يعيش على هامش مترف، وعدنان في غموض زائف، وأنا في منفى يحيرني ويعذبني. رتابة التعاسة العقيمة في بيت لحم، عليّ الآن بمضنيات نوع آخر من التعاسة. غير انني ظللت أردد في نفسي: «ليست تعاسة. ليست تعاسة. هنا امكانيات للحياة والفعل، بل حتى التجربة الحسية. يجب أن تكون عندي الارادة لأن أصبح جزءاً من الحياة مرة ثانية، لأن أشارك في إطلاق سلافة، بل مليون سلافة، ومليون عدنان، من قوى العدمية والشر. ولكن هل أنا نفسي طليق؟ أتمنى أن يرن التلفون».

ورن، فانقضضت عليه.

همس الصوت: «جميل»؟

فشعرت بالرعب، إذ ظننت الصوت صوت سلمى.

– «نعم. من المتكلم»؟

– «سلافة».

– «أخيراً... أخيراً...» ولاحظت ما كان في صوتي من حشرجة.

– «أكنت تنتظر أن أتلفن لك»؟

– «نعم، نعم، سلافة».

– «أنا سعيدة إذن. ظننت انك لا تحب ذلك».

– «أريد أن تُتَلْفني كلما استطعت».

– «يا ليت»...

– «أعرف. أعرف».

وارتعش صوتي بحماس مجنون. إلا أن صوت سلافة كان هادئاً، كعادته دائماً. وقد أغضبني ذلك.

قالت: «يجب أن أذهب لأنام قبل أن يعود أبي».

– «ألن تقولي شيئا»؟

فضحكت بنعومة. سمعت الكركرة الصغيرة تعزف في حنجرتها نفسها. وقلت: «يمكنني أن أتصور حنجرتك وهي تومض بضحكتك».

– «عندي ألف شيء أقوله لك».

– «إذن قولي لي واحداً منها».

صَمتَتْ برهة. كان نَفَسُها مسموعاً. لكنها قالت بعد ذلك: «لا أستطيع».

– «ليس... عليك... أن...».

قالت: «أنا خائفة».

– «خائفة؟ مِم»؟

– «لا شيء، لا شيء، طابت ليلتك يا جميل».

– «ولكن سلافة ؟».

– «طابت ليلتك يا حبيبي».

– «طابت ليلتك يا سلافة. سلافة». ظللت أردد اسمها كالتعويذة السحرية – على خط صامت، مغلق.

– ١٢ –

كان التوتر في اليوم التالي بادياً على كل وجه. وكان الركاب في الباص الذي ركبته متوجهاً نحو الكلية صامتين متربصين. ولم ترتفع الأصوات في الشارع ذلك الصباح إلى حدتها المعتادة. وامتلأ الجو باستماتة مكتومة، بخوفٍ صامت. ورانت على أروقة الكلية سحابة غريبة من السكون مشحونة بالتوقع والعداء. ونبضت المدينة كلها بتجهم أسود، كما لو ان البنايات والدكاكين والمقاهي المهجورة نفسها قد جعلت من نفسها كميناً يترقب اللحظة المواتية.

أفرغت سيارات كثيرة ملأى بالشرطة أحمالها في نقط استراتيجية. في الساحات وقرب الجسور بوجه خاص، لمنع التحام الجماهير المتظاهرة التي تتدفق من مختلف أجزاء المدينة. وكان رجال الشرطة، بوجوههم المشدودة السمراء، مسلحين بالهراوات. وكان بوسع المرء أن يلمح في عيونهم الخوف والضراوة المتحفزة التي تميز حيواناً يستعد للعراك. ولربما أدركوا أن واجبهم كان أمقت الواجبات في الدنيا. فهم، ربما لا يعرفون ما الذي جاءوا يدافعون عنه، ولكنهم يدركون أنه إذا بدأ العنف فإنهم سيتلقون أول الضربات القاصمة. ورغم انهم كانوا الرمز المرئي للسلطة والردع، إلا انهم لم يروا في أنفسهم أكثر من أفراد خانهم الحظ، على كلٍّ منهم واجبه وحاجته الطبيعية للراتب هو وزوجته والعديد من أطفاله الذين ينتظرون محمومين عودته سالماً. وعندما رأيت وجوههم المجدّرة المبثورة، بملامحها الضائعة، ولحظت أيديهم القلقة بعظامها الناتئة، يطل منها جميعاً إدقاع الروح والجسد، تساءلت هل خطر لهم أن يسألوا أنفسهم في يوم من الأيام: «لماذا لا يحبنا الناس أكثر قليلا»؟ لكن سؤالاً كهذا كان سيضعهم على حافة التمرد ونكران الولاء للسلطة.

كنت في غرفة هيئة المدرسين بالكلية – إذ رفض الطلبة حضور الدروس – حين انفجر الصَّمْتُ المشحون، الذي ران على المدينة، في عدة مناطق مرة واحدة. فقد التحمت جماعات متفرقة من الجماهير خارج المنطقة المركزية على جانبي النهر، وبعد شيء من الفوضى والأخذ والرد والأمر والعصيان، تجمع الكل في موكب ضخم يسير قدماً بإيقاع مهيب غريب، ببطءٍ وتصميم. واختلطت الفتيات، بعضهن بعباءاتهن، بالرجال من كل الاعمار والمهن، لكن القوة المحركة في كل مكان كانت قوة الطلاب الذين يملأهم الشباب والغضب، وتملأ ذاكرتهم ثورات التاريخ.

كان رجال الشرطة خلال ذلك، صفاً خلف صف، في السيارات والمصفحات، ينتظرون بتحفز أقل خطأ في حركة الآلاف المتقدمة.

عندما وصل المتظاهرون إلى الشارع الذي تقع عليه الكلية تقدموا خلاله بصوت راعد نحو الساحة. وما أن اقتربوا منها حتى أتاهم إنذار بألاّ يتقدموا أكثر مما فعلوا وأن يعودوا من حيث أتوا. ولكن بما أن المظاهرات الزاحفة من مختلف الجهات كان مقرراً لها أن توحد قواها في شارع الرشيد، فقد كان لا بد من اقتحام الساحة. وكان المدخل من جهة شارعنا، بسبب ضيقه، مكاناً مثالياً لأغراض الشرطة. فما ان مرت بضع دقائق حتى هجموا على الجمهور ورد هؤلاء الهجوم، وتراجع الجمهور وانقسم إلى وحدات متعددة، وأخذت القذائف تتساقط كالمطر ينهمر من جهات السماء الأربع على الشرطة في الساحة. أما المؤخرة فقد غدت غير ذات تأثير بسبب عجزها عن إشغال أحد، مما دعاها للبدء بالتشتت. وسمعت صرخات ألم وصيحات غضب. واكتسحت البيوتَ المجاورة زُمَرٌ مختلفة سرعان ما ظهرت على السطوح وأخذت تقتلع الطابوق (القرميد) من حواف السطوح بأيديها العارية وتقذفها على الساحة. وأسقط البعض الطابوق بعناية إلى الرصيف ليتسلح بها من هم تحت. بر بشري ماج وهاج وأرعد.

لم يستعمل الشرطة حتى ذلك الوقت أكثر من العصيّ. لكن القوة المضادة أخذت تتغلب عليهم وكانت قطع الطابوق تصيب أهدافها. وفجأة انطلقت رصاصة من سيارة شرطة واقفة في الساحة. ثم انطلقت أخرى. وتبعتها لعلعة أخرى من الرصاص. وانشق الجمهور ثم انقسم إلى مئات من الأفراد الضالّين يركضون في اتجاهات مختلفة وأفراد الشرطة يتبعونهم بعزيمة متجددة.

تحت شباكنا مباشرة تقريباً ضرب شرطيّ فتاة بهراوته على رأسها فتهاوت على نفسها. وفي مثل لمح البصر هجمَ عليه خمسة من الطلبة ومددوه على الأرض ونزلوا عليه ضرباً بنفس هراوته، ثم استولوا على مسدسه وعجنوه بأقدامهم.

وسبقت عربات الخيل إلى مسرح الأحداث، ونقل الجرحى إليها من قبل أصدقائهم. وعلى مبعدة قليلة تحولت مقاعد المقهى الطويلة إلى أسرَّة للجرحى، بينما غمس غيرهم أيديهم بدمائهم وكتبوا «تحيا الحرية»، «يسقط الاقطاع» على رايات ولافتات حملت مباشرة إلى مشهد المعركة.

– ١٣ –

توقفت الاضطرابات، إلا ان التوتر لم يتبدد لعدة أيام. استعادت المدينة حركتها بالتدريج، وعادت المقاهي إلى الامتلاء، وعاد بيّاعو اليانصيب وبزر البطيخ إلى تجوالهم وصياحهم. كان قد قتل عدد من الناس وجرح عدد أكبر. أما السجون فقد غصّت بالطلبة والمشبوهين، بينما غدت أصوات الاحتجاج تحت القانون العرفي المؤقت خافتة وقليلة.

عندما أقلتني سيارة آل النفوي إلى الدرس المعتاد ورافقني عبد إلى غرفة سلافة وجلس على مقعده، وجدت سلافة أكثر مرحاً من المعتاد.

قالت: «خفت انك لن تأتي».

فقلت: «حسبتني ضعت في الاضطرابات»؟

– «خشيت ذلك».

– «ولماذا لم تتلفني لي لتعرفي الحقيقة؟ لقد أهملتني طيلة سبعة أيام».

فمشت نحو النافذة ونظرت عبرها نحو النهر اللامع، وقالت: «لم أهملك».

ارتعشت ركبتاي حين جلست على كرسيي المريح رغم إرادتي. قلت بخشونة: «عودي إلى كرسيك يا سلافة».

فقالت وهي تستدير ببطء، وبصوت هادئ: «أحبك».

– «من بين ربع مليون امرأة في بغداد أختارك أنت كي أحب. أنت، المنصاعة، المتماهلة، البعيدة المنال، الـ – سجينة. فظيع»!

– أخشى أنني لم أكتب لك تلك المقالة السخيفة التي طلبت مني كتابتها».

فضحكت بعصبية. ولا بد ان لوني الذي كان يتغير كل لحظة، كان متعة كبيرة لعبد. إلا انه بدا على جموده المعهود. وقلت:

– «لا بأس. أوافقك على أنها سخيفة».

– لكنني كتبت لك شيئاً آخر».

– «حسناً فعلتِ. أريني».

– «رسالة طويلة جداً. وبالعربية». وذهبت إلى منضدتها وفتحت دُرْجاً أخرجت منه مغلفاً كبيراً. فخمنتُ أنها رسالة غرام. أما هي فقد أخرجت الأوراق وقالت: «رسالة طويلة عن حياتي – أو هل أقول: موتي»؟

ولما وقفت لأخذها منها امتنعت عن إعطائي إياها قائلة: «سأعطيك عند انتهاء الساعة. فلست أجرؤ أن أراك تقرأها».

– ١٤ –

حين غادرت البيت الذي تملأ حديقته الزهور وأشجار الكينا طلبت من سائق آل النفوي أن يأخذني إلى فندق شهرزاد. وهناك ذهبت إلى البار مباشرة (حيث لم يزد عدد الجالسين على اثنين أو ثلاثة بعد) وجلست في إحدى الزوايا وأخرجت رزمة الأوراق التي أعطتني إياها سلافة. كانت رسالة طويلة بالعربية كتبت على مدى بضعة أيام. ولكن لا بد أنها كتبت بسرعة هائلة – فتلك هي الرسالة مليئة بالكلمات التي تصعب قراءتها، بالحذف غير المقصود، وبالأخطاء الإملائية. وبينما كنت أقرأها إلى نهايتها انتابت جلدي من كاحلي حتى رقبتي نوبات متعاقبة من التشنجات والرعشات. فللمرة الأولى سمعت صوت سلافة. محتداً، معذباً، محموماً. كان كل شيء مكبراً في عينيها، مضخماً بشكل لا يطاق.

قرأت الرسالة المرة تلو المرة. كنت قد أنهيت شرب الكأس الثالثة، وكان رأسي يدور ويداي ترتعشان. كنت مليئاً بالفرح والسم معاً. ولاح لي ان المدينة قد قشرت جزءاً من جلدها حيث رأيت اللحم المقيّح. لقد أحببت سلافة. أحببتها لمخاوفها وبؤسها، لقد تمكنتْ أخيراً من قول ما في نفسها، تمكنت من إخراج شيء مما في صدرها. ولكن ما عساها قصدت بـ «قرارها» و«عزمها» و«جريمتها»؟ لم أكن من الغباء بحيث أتصور ولو للحظة انها قصدت الهرب، إذ انها أوضحت ذلك بنفسها. أتراها فكرت فقط انها من الآن فصاعداً ستقابلني أكثر، لوحدها أو في مكان ما خارج البيت؟ لم أعرف. لقد أفزعتني أيضاً: عدنان كان يريد الزواج منها! ذلك الأحمق لم يفه لي بشيء عن ذلك. بل انه لم يسألني عنها. أما يزال يحبها؟ ماذا تراه سيقول لو عرف انها تحبني وأحبها؟ كان حبي لعدنان من القوة بحيث فكرت في إخباره. ولكن حين راجعت الفكرة وجدتها حمقاء. فبديهي انه كان عليّ أن أحتفظ بالأمر سراً. والشخص الوحيد الذي يمكنني أن أحدثه بالموضوع هو سلافة نفسها، وما كنت بمستطيع لنسيان عدنان. تخلصت سلافة من ذكره ببضع جمل، بخفة ويسر! أتراها قادرة على تصور المرارة التي سببتها له تلك الحادثة؟ ماذا كانت تقول لو انها قرأت قصيدته عن النساء اللواتي يصلبن رجلاً على نخلة لشدة ما بهنّ من شبق؟ لكن عدنان كان خارج الصورة الآن. انتهت قصته، وبدأت قصتي.

– «جميل!» جفلت بشكل مزعج جداً حين حطت يدٌ نفسها على كتفي بخفة وصاح صوت باسمي قبالة وجهي.

بشعور يقرب من شعور المذنب طويت أوراق رسالة سلافة، بينما نظرت إلى الأعلى لأجد برايان.

قال: «لا تجفل. يبدو انك كنت مستغرقاً تماماً».

فقلت بصوت ضعيف: «حقاً». وحشوت الرسالة في جيب السترة الداخلي.

– «ناديتك مرتين من تلك الزاوية، ولكنك لم تسمعني».

وحين نظرت إلى الموضع الذي أشار نحوه رأيت سلمى وزوجها الأشيب جالسين إزاء منضدة عليها كؤوس، فوقعت ذكرى نزهتي مع سلمى على رأسي كالمطرقة: رأيت الطريق المحفرة المستقيمة التي لا تنتهي، والأشجار تلوح في أشعة أضواء السيارة وهي تحرك رؤوسها كأنها أشباح تعلم بالمؤامرة، وسلمى تتشبّث بي.

ابتسمت لها وانحنيت قليلاً فرد أحمد الربيضي ببسمة قصيرة، بينما لوحت سلمى وكوعها على المنضدة، تلويحة طفيفة بيدها ثم خفضتها.

قال برايان: «هيا إلى منضدتنا».

فقلت: «ألا تفضلون البقاء وحدكم؟» كان الأجدر لو أنني أوجه هذا السؤال إلى نفسي. فلسبعة أيام خلت كانت سلمى قد غابت تماماً عن ذهني، والآن كنت غير راغب في تجديد الصلة.

قال برايان: «هل سمعت الأخبار»؟

– «أية أخبار»؟

قالت سلمى: «عن عدنان».

فغاص قلبي في صدري.

قالت: «اعتُقل».

– «فظاعة»!

فقال السيد أحمد: «سيخرج قريباً. سنبذل ما في وسعنا».

سألتُ سلمى: «هل تعرفين سبب اعتقال عدنان»؟

فقالت: «له صلة بالمظاهرات. ومن بين كل المحلات التي يمكن أن يعتقل بها، تم اعتقاله في حمام عمومي في الشارع الضيق»!

أذهلني ما قالته، فقد كان ذلك هو المحل الذي يعتبره عدنان أميناً لعقد الاجتماعات السرية.

قال برايان: «تقابلنا لأول مرة في ذلك الحمام. هل وجد انه يرأس حلقة ؟ أو شيئاً من هذا القبيل»؟

– «لم يشترك في المظاهرات، على حد علميس.

فقلت: «لا يدهشني ذلك. فهو في الواقع ليس من الذين يتزعمون الفئات »

قال برايان: «مما يذكرني بما قاله لي أحدهم من أن حسين المسكين قد خرج من المظاهرات بفشخٍ في الرأس».

فقلت: «حقاً؟ لا بد أن أراه».

– «لن تتمكن. هو الآخر موجود في السجن، ولا يسمح لأحد برؤيته».

قال السيد أحمد: «حان لنا أن نذهب». كانت الساعة تناهز الثامنة.

وقالت سلمى: «فعلاً».

قلت: «يبدو انكم في عجلة».

ففسرت سلمى: «نحن مدعون إلى عشاء في نادي العلوية عند مستر بْلِنْكِنْسُوبْ وزوجته». بلنكنسوب هذا كان عضواً في السفارة البريطانية.



–١٥–

في ذلك المساء ذاته، وبعد ثلاث ساعات، حين كنت في غرفتي أتصور نفسي، كما اعتدت أن أفعل، وأنا أنهي عملية فرار أو لحاق – لا أدري أيهما بالضبط – بالارتطام بحائط نهائي، كانت سلمى التي نسيتها كلما غابت عني تتكلم معي على التلفون.

– «أنا في النادي». قالت ذلك بصوت خافت كأنما لتتلافى أن يسمعها أحد.

فقلت: «بعد عشاء جيد»؟

– «الجماعة يلعبون البريدج».

– «ولِمَ لا تلعبين أنت»؟

– «رفضتُ اللعب. أنا ضجرة».

– «الضجر شعور سلبي. أما أنا فبي قَرَفٌ فعلي».

– «اسمع».

– «نعم»؟

فهمست شيئاً لم أسمعه: «ماذا قلتِ؟ لا أسمع ما تقولين».

– «ما رأيك بنزهة في السيارة»؟

فقلت في نفسي: «آه يا ربي!» ثم لها: «ماذا؟ الآن»؟

– «أجل».

– «هل أنت جادة»؟

فلهثت بصوت بالغ النعومة: «أرجوك سأفسر لك الوضع فيما بعد».

– «لا بأس. سأنتظر على الرصيف».

لن أستطيع تفسير موافقتي أبداً. فمثل من يُعطى كاساً، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم كثيراً غيرها، من يقبلها ويشربها جميعاً لأنه يرفض المقاومة، حتى يسكر ويقول كل الأشياء التي لم يقصد قولها أبداً، حتى يشعر بالقرف واحتقار الذات، حتى يلوث نفسه وكل شيء حوله، قبلت دعوتها لنزهة في السيارة. لم أكن كامل الصحو تماماً، لكنني كنت أعرف تمام المعرفة انني إنما أخرج مع سلمى ضد كل قوانين احترام النفس. (كانت سلافة كالجرح في دماغي). قلت لنفسي: «انتظر يا جميل المرأة التي تريد أن تجدد شباب لحمها على لحمك بينما تشتعل سلافة كالحمى في رأسك. قل ذلك لسلمى، المرأة المتحضرة التي تعرف وتتقبل وتحب مرض حياتها ولا جدواها: سوف تفهم».

بعد دقائق كانت قد وصلت تسوق سيارتها البويك، فدخلت السيارة وجلست بجانبها.

قالت: «عليّ أن أعود إلى النادي قبل منتصف الليل. وكل ما عندنا من الوقت يقل عن الساعة».

– «أولن يفتقدوك»؟

– «قلت لأحمد إنني خارجة من أجل دورة قصيرة في السيارة. وهو لا يعارض».

– «وماذا عن بلنكنسوب وزوجته»؟

– «كانوا جميعاً مشغولين بلعبة البريدج عندما خرجت وكان هناك ست مناضد».

– «من أين تلفنت»؟

– «من تلفون النادي الكائن في البهو. تلفنت لأختي – أم سلافة – أولاً، من أجل الحيطة».

– «أنت مجنونة».

– «أعرف. ولكن منذ نزهتنا الأخيرة وأنا عاجزة عن انتزاع صورتك من ذهني».

– «أنت مجنونة وتطلبين المصيبة».

– «أرجوك يا جميل».

لم تنظر نحوي وهي تسوق سيارتها بسرعة مخيفة.

– «إلى أين نحن ذاهبان»؟

– «هلاّ أشعلت لي سيكارة»؟

ففعلت، ومصتها مرة أو مرتين ثم رمتها من نافذة السيارة.

وصلنا منطقة بيوتها متباعدة. لم أكن قد جئت إلى تلك الضاحية من قبل، وهي قليلة الأضواء. ووقفنا خارج بيت لا ضياء فيه. كانت الأشجار تحيط بنا من كل جانب.

– «هذا البيت ملكنا. كان مؤجراً لعائلة أمريكية غادرت البلد قبل المظاهرات بأيام».

خرجنا من السيارة. كانت البوابة الحديدية الصغيرة مغلقة. ومشينا في ممر اسمنتي قصير يمتد عبر حديقة صغيرة. وفتحت سلمى الباب بالمفتاح الذي كان بيدها ودخلنا البهو المظلم كاللصوص.

قالت: «لن نضيء أية أنوار».

تمكنت أن أرى في الضوء الباهت الذي تخلل أستار النوافذ الموصلينية من الشارع ان الغرف مؤثثة وان سلمى تعرف طريقها فيها.

قلت: «أنت أجَنُّ النساء إطلاق».

وجلستُ على مقعد بجانب النافذة وجررتها إليّ. وعندما جلستْ في حضني أحببتُ أن أراها عارية. فأزحت الستارة طلباً للمزيد من ضياء الشارع، ولفّتْ هي ذراعها حول عنقي، وهمستْ: «سوف يرانا أحد».

نزعتُ ثوبها من فوق رأسها، وشعرت نحوها بالكراهية. كنت آمل أن أرى كمية من اللحم المغضن المهدود في حجري. إلا انها كانت صلبة وناعمة. وانسحبتْ مني وانزلقتْ على الأرض لأراها بشكل أفضل وهي تتلوى وتترامى على البلاط. كان لحمي بارداً متأنياً. ولكنني انزلقت أنا الآخر وأخذت عريها المطواع بين ذراعي.

كانت شفتاها متوحشتين. وانغرزت أصابعي الباردة كالثلج في جسدها كأنها أزاميل عمياء في كتلة ساخنة راعشة.

وفي طريق العودة قلت لها: «أرى انك دبرتِ كل شيء بإحكام».

– «ماذا تقصد؟»

– «لم يكن من قبيل الصدفة ان مفتاح البيت غير المسكون موجود في حقيبتك، وأن سائق سيارتك ظل في البيت هذه الليلة».

– «أكرهك»!

– «لن نعيد هذه الفعلة بعد الآن».

– «أتظن انني أحب المخاطرة بكل هذا الرعب»؟

– «يجب أن تفعلي كل ما بوسعك لإخراج عدنان من السجن».

– «تتكلم كما لو كنت واقعاً في غرامه».

– «أتغارين حتى من صديق»؟

– «أريدك يا جميل».

– «لكن ؟».

– «نعم»؟

– «أنا أحب سواك».

فداست على الكابح بعنف بلغ من شدته وفجأته ان السيارة أطلقت جئيراً عالياً وهي تأتي إلى وقفة عنيفة.

– «من هي؟ واحدة من هنا»؟ كان صوتها يتحشرج في حلقها.

لم أجب. وشغّلتْ السيارة مرة ثانية.

– «قل لي، أرجوك، قل لي. هل أعرفها»؟

فقلت ببرود: «لا».

– «هل يمكن أن تكون سلافة ؟» ترددتْ قليلاً ثم عادت لتقول: «هل تحبك»؟

– «من أعطاكِ هذه الفكرة»؟

وعادت لتسوق بصمت. وكرهتها. كرهتها كالسم، لأنها كانت تبكي، لأنها لشدة دهشتي ورعبي، بانت جميلة، لأنها نجحت أخيراً في أن تثير بي شهوة مقيتة لجسدها.

قلت: «ما رأيك بالعودة»؟

فأجابت بصوت نائح: «أين»؟

– «إلى البيت الذي تركناه قبل قليل».

– «ليس لدينا وقت كاف».

– «بل لدينا». ووضعت يدي على فخذها.

عند المنعطف التالي استدارت بالسيارة. وعندما دخلنا البيت المظلم مرة ثانية كان وجهها ما يزال مبللاً بالدموع. وأخذتني إلى غرفة نوم فيها سرير غير مُعَدّ، وهناك نفثت فيها بحقد وضراوة كل ما في الشهوة اليائسة من عنف وسم وشقاء. لكنني في ذلك الظلام، مغلق العينين على كل قبلة، كنت أتصور جسد سلافة يتلوى بحرارة على جسدي.

-١٦-

عندما صعدت حوالي منتصف الليل إلى غرفتي لم أكن أخشى شيئاً خشيتي لمكالمة تلفونية من سلافة. لذا رفعت سماعة التلفون وتركتها في غير مكانها، كما لو أنني أوقفت خطر قنبلة كانت ستنفجر في وجهي. ولم أعد السماعة محلها إلا في الصباح.

وفي الليل رن التلفون.

وجاء صوت سلافة مستعطفاً: «جميل»!

– «نعم يا حبيبتي»؟

– «هل يمكنني أن أراك غداً»؟

– «أتستطيعين؟ كيف»؟

– «ليس ذلك سهلاً».

– «لا تقْدمي على أي شيء متهور يا سلافة». لم يكن شعور الذنب الذي لازمني البارحة قد فارقني بعد.

– «لا. سأراك دقيقتين أو ثلاثاً، لا أكثر. هل قرأت رسالتي»؟

– «عدة مرات».

– «اسمع. سأمر حوالي الرابعة من بعد عصر الغد على مكتبة مثيل. فهلاً انتظرتني هناك في تلك الساعة؟» ولاح صوتها غريباً مرتبكاً.

قلت: «بالطبع. سأكون هناك قبلك».

– «هل تحبني»؟

كان لمكتبة مثيل شكل غريب: فهي تشبه الإسفين الطويل، ضيقة عند المدخل، عريضة المؤخرة. ويختنق المدخل بالمجلات والكتب ذات الأغلفة الورقية المستوردة من انكلترة وأمريكا، وبالكتب الأشبه بالكراريس، مما يطبع في بغداد. وكان صاحبها البدين الذين يبدو عليه السرور دائماً ولا ينقطع عن الحديث، يجلس قرب الباب خلف منضدة تكدست عليها المجلات والكتب التي تبيّن أنه يقرأ بعضها خلال الساعات التي يقل فيها العمل.

صاح مثيل: «أهلاً، أهلاً، أهلاً أستاذ جميل! كنت أرجو أن تأتي. فقد استلمت للتو كاتالوج مطبعة جامعة أوكسفوردس. وفتش في الأكوام التي أمامه وأعطاني إياه. «هلا أخذته معك إلى البيت لتؤشر على الكتب التي قد يريد طلابك قراءتها»؟

فقلت: «بكل تأكيد. لا أدري ماذا كنا نفعل بدونك يا سيد مثيل». وأخذت المجلد منه. مث مشيت نحو الطرف الآخر من المكتبة حيث تصطف الكتب ذات الوزن. ولم يكن هناك سوى زبون واحد آخر يتصفح بعض المجلات. وتمنيت من الله ألاّ يترك مثيل منضدته ليحدثني عن آخر دفعة استلمها من الكتب. ولحسن الحظ فتح الرجل كتاباً عربياً – إذ كنت أراقبه بطرف عيني – وانهمك في القراءة.

وبعد خمس دقائق وقفت سيارة إزاء الباب، ودخلت سلافة المكتبة. حددت النظر في وجه مثيل حين رفع بصره لأرى ان كان سيبدي أية علائم تدل على معرفته للفتاة. لكنني لم أستطع التأكد من انه رأى فيها من يعرف. على الأقل لم ينقضّ عليها انقضاضه على من يعرف من الناس.

ومثّلت أنا وسلافة مشهداً قصيراً أظهرنا فيه دهشتنا لهذه «الصدفة» بل اننا تصافحنا. ولكم لاحت لي حينذاك صغرة السن فتية! كانت عيناها، كالعصافير البرية، تقفز من موضع إلى آخر. هي الأخرى أرادت أن تعرف إن كان مثيل تبين من هي. كانت بيدها حقيبة صغيرة وترتدي بلوزة بيضاء لا أكمام لها جعلتها تبدو أشد سمرة وأكثر برودة مما هي عليه في الحقيقة.

سألتني: «ماذا تنصحني أن اقرأ»؟ إلا ان الصوت كان أعلى مما يجب، رغم انها قصدت منه أن يسمعها مثيل.

– «لننظر ماذا هنا».

وأدرنا ظهرينا نحو المدخل، وجعلنا نتأمل في الجدار المقابل الذي تغطيه الكتب. وكان ثمة خلفنا منضدة طويلة تصطف عليها الكتب والمجلات.

وهمستُ من فوق كتاب مفتوح، شاعراً بالنشوة: «حبيبتي»!

فابتسمت وفتحت حقيبة يدها، وقبل أن أدرك قصدها أخرجت ورقة من فئة العشرة دنانير ووضعتها في يدي.

فهمستُ: «ما هذا»؟

– «أريدك أن تشتري لي مسدساً». قالت ذلك بصوت خافت ولكنه حازم لا تردد فيه.

دققت النظر فيها مذهولاً. بل انني لم أبالِ بأن يرانا مثيل، وقلت: «لمَ»؟

فأخذت مجلداً ثقيلاً عن الرف وقالت بصوت عال: «أريد أن أقرأه».

ولم يكن بإمكاني أن أعيد النقود دون الاخلال بالتمثيلية. قلت: «ما العنوان»؟

فأجابت: «دليل أوكسفورد للأدب الانكليزي». ثم همستْ: «أرجوك، جئ بالمسدس في موعد الدرس القادم يوم الاثنين. أنا بحاجة إليه، بحاجة ماسة إليه».

وتذكرت حينذاك كل الاشارات المقتضبة في رسالتها إلى «العزم» و«الجريمة». فهززت رأسي بعنف وأنا أقول: «لا أستطيع».

– «أرجوك». كان وجهها، الذي يغلب أن يكون خالي الشعور عديم الانفعال، محتداً معذباً للحظة قصيرة. وقالت بتحريك شفتيها دون صوت: «أحبك». ثم بصوت مسموع: «مع السلامة يا أستاذ»!

تركتني وأخذتُ الكتاب لمثيل كي يراه. وراقبتها كالأبله دون التمكن حتى من مرافقتها إلى الباب. ودفعت ثمن الكتاب وذهبت، وانصفق باب السيارة. كانت ورقة العشرة دنانير قد تحولت إلى كرة في قبضة يدي فأدخلتها في جيبي متمتماً، فيما كنت أتظاهر بتفحص المزيد من الكتب على الرفوف: «بهذه اذن عليّ أن أشتري موت واحد من الناس؟ وموت حبيبتي، ربما أيضاً»؟

-١٧-

كان اليومان التاليان طويلين، طويلين جداً. حتى العمل لم يتمكن من وصل المسافة بين الساعة والأخرى بسلام. كل دقيقة، كل ثانية، كان يجب أن تُحسّ. كل دقيقة، كل ثانية، شقّت دربها عبر ذاتي. وأدركت كيف يتهاوى الرمل خلال الساعة الرملية. أما الرمل فيّ فكان قوامه الدم؛ والحركة نحو الأسفل ليست كحركة الرمل نعومة وانزلاقاً. لم أشتر المسدس لسلافة – هذا ما يفرضه العقل عليّ على الأقل، فيما حسبت. لكن كان عليّ أن أنتظر موعد درس الاثنين. حينذاك قد تفسر سلافة الأمر حين أرى عينيها الفزعتين ثانية وأسمع صوتها. لم تتلفن هي لي. ظللت في غرفتي طيلة الأمسيتين. وجسلت في سريري طوال الليل، بانتظار أن يرن الرسول البارد الأسود. لكنه ظل صامتاً. يومان هاويتان فاغرتان عن فراغ عليّ أن أملأه بدم الانتظار.

أخيراً حانت الساعة الخامسة من عصر الاثنين، موعد مجيء سائق آل النفوي لاصطحابي إلى البيت. كنت أرتقبه خلال الشباك المطل على شارع الرشيد، متفحصاً سيل السيارات المارة، متطلعاً إلى رؤية السيارة الهمبر السوداء التي تتسع لسبعة ركاب، كي أهب إلى الأسفل للقائها. لكنني ارتقبتها لمدة طويلة دون فائدة. وتجاوزت الساعة الخامسة بدقيقتين، ثم بخمس، وثماني، وعشر وخمس عشرة. وتصبب عرقاً. وأحسست بجلدتي كتابيّ تذوبان تحت يديّ المتوترتين اللاهبتين.

قلت: «لقد حدث شيء. لا بد أن أتلفن».

لم أكن أعرف رقم تلفون عماد حتى ذلك الوقت، فاستخرجته من الدليل وأدرت القرص.

فرن التلفون في الطرف الثاني مرات ومرات كأنه مخلوق مبهور الأنفاس يلهث دونما راحة. أخيراً زعق في أذني صوت امرأة:

– «من يتكلم»؟

– «جميل فران».

– «ماذا تريد»؟

– «أريد أن أتكلم مع عماد بك».

– «غير موجود».

– «مع سلافة، إذا أمكن. أنا أستاذها».

– «غير موجودة».

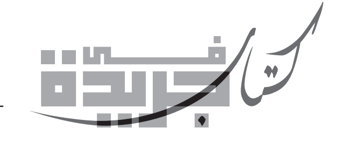
فسألتها وقد توترت أعصابي: «من أنتِ»؟

– «فاطمة الطباخة».

– «أليس من أحد في البيت»؟

– «لا. ذهبوا إلى بعقوبة».

– «آ... شكراً». وأغلقت التلفون. «يا لشياطين الجحيم! ماذا تراهم ناوون»؟ وتصورت سلافة يأخذها أبوها إلى بساتين البرتقال في بعقوبة، حيث يطلب إليها أن تنطرح على ظهرها تحت واحدة من تلك الأشجار ذات الغصون الناحلة والرائحة الذكية، وهو يقول: «أسف يا عزيزتي، ولكنني نذرت أن أذبحك تمجيداً لإله أجدادي». لن يكون ثمة كبش بين الأشجار، ولا ملاك يزيح السكين عن نحرها الطاهر، وسيأتيني بعد ذلك عماد بسيارة الهمبر ليقول لي: «أستاذ جميل، هلاّ تلطفت، وكتبت مرثية على وفاة ابنتي لنشرها في صحف الغد»؟





-١٨-

طرقت صاحبة شقتي على الباب ثم فتحته مترددة فتحة تكفيني لرؤية وجهها. قلت: «تفضلي».

فدخلت وهمست: «هناك رجل بزيّ عربيّ على الباب يريد أن يراك. هل أسمح له بالدخول»؟

– «آ، لا بد أنه توفيق الخلف. نعم. نعم». وتوجهت نحو الباب بنفسي، إلا انها استوقفتني لتهمس مرة ثانية: «احذر هؤلاء الشيوخ، فهم دائماً يركضون خلف البنات، البنات السيئات».

إلا انني أسرعت نحو الباب ورحبت بتوفيق الذي لم أره منذ أسابيع. وما إن دخلنا حتى قال: «أكاد أنفجر من الغضب».

– «على قضية عدنان»؟

– «أجل. فمنذ ثلاثة أيام وأنا ألفّ وأدور في زيارات للأعيان وأصحاب الدولة، للوزراء والوزراء السابقين، مستهلكاً في هذا الحر كميّات من القهوة والشاي، بغية التمكن من إطلاق سراحه».

– «وهل أفلحت»؟

– «أبدا». ثم أضاف وهو يخلع عباءته الشفافة ويضعها على الكرسي: «بطبيعة الحال، إذا أصر عدنان على الاستمرار في التسكع فسيلقى عقابه. عش متسكعاً ومت ضائعاً، لمجرد أن تدعوك حفنة من الحمقى بطلاً وشهيداً». ثم جلس.

– «إن لم يخرج على عجل فسيلقى كل ما يشتهي قلبه».

– «أنا واثق ان القضية كلها مبالغ فيها كثيراً».

– «أو مُساءٌ فهمها».

– «أنا أكره سياسة المدن».

فقاطعته: «ما رأيك بفنجان قهوة»؟

– «لا. دعنا نذهب إلى فندق شهرزاد لنشرب كأساً من البيرة. أوشكت الشمس على المغيب». كان توفيق الرجل الوحيد الذي يرفض أن يحمل ساعة من بين كل من أعرف.

– «لا بأس. ولكن بعد أن نشرب القهوة». وخرجت لأطلب من الخادم أن يغلي لنا شيئاً من القهوة. ثم عدت وقلت لتوفيق: «أنت تكره سياسة المدن إذن؟ على الأقل ليست هناك سجون في البادية».

– «لا سجون هناك، والقيم محددة بدقة. المدينة هي المكان الوحيد الذي تختلط فيه القيم اختلاطاً تعيى معه عن التمييز بين الصديق والعدو، بين الخير والشر».

– «لا أعرف سبباً يحدوني للدفاع عن المدينة ضد تهجماتك يا توفيق. فأنا أكرهها مثلك. ولكن، كما ترى، حين تجتمع أعداد كبيرة من الناس فكيف يمكن تفادي التحول إلى كيان اجتماعي معقد تتوقف فيه القيم عن أن تكون سوداء أو بيضاء، بل تكتسب تدرجات لا نهاية لها من الألوان»؟

– «وما نفع التحول إلى كيان اجتماعي معقد ما دام المرء يفقد في تضاعيفه المتشابكة ثقته وطمأنينته، ومعرفته للصواب والخطأ؟ لم يتمكن ولو واحد من بين كل ذوي السلطة الذين زرتهم أن يقول شيئاً محدداً عن عدنان. عدنان الحالم، الشاعر، الملاك، المتسكع، الذي لو كان في عشيرتي لترك مع الماعز ينسج القوافي فيما يقصع القمل بين إظفري إبهاميه ؟ عدنان هذا هو في المدينة شخصية هدامة، متمرد أهوج، كل كلمة يقولها وكل فعل يؤديه تهديد للأمن العام. وأنا أسألك بربك، أليس هذا منافياً للمعقول؟ أليس هذا هو الجنون بعينه»؟

– «ولكن ليس عدنان هو الوحيد الذي ينظر إليه كمتمرد أهوج. حتى أنت وأنا قد نعتبر متمردين لو عرفت كل كلمة نقولها وكل فعل نؤديه. أما التمرد داخل عشيرتك فليس ضرورياً –».

– «تمرد داخل العشيرة؟ هذا خارج التصور. الأفكار الجديدة ما هي إلا بِدَع، والبدعة عقابها الموت. هكذا ببساطة».

وأتى الخادم بفنجانين من القهوة. ثم استطرد توفيق وهو يمسك الفنجان الصغير بيده الضخمة: «لكنني أحب عدنان. إن فيه لباباً طيباً. ولسوف آخذه من هنا عاجلاً أو آجلاً لأعلّمه ركب الخيل وأبعده عن حياة التمرد هذه والعيش كالفقراء المعدمين وما إلى ذلك من أمور المراهقين. بودّي لو انك رأيتَ كيف أوشكتْ حياته على التحطم قبل سنتين أو ثلاث لأنه لم يتمكن من الزواج من ابنة عمه سلافة. لكنه فيما بعد ؟».

– «أعندك علم بذلك»؟ قلت ذلك وأنا أقفز من مقعدي. كنت أشعر بحاجة معذبة للحديث عن سلافة، فلقد مرت عدة أيام دون كلمة منها.

– «طبعاً، إذ ان عدنان لم يحتفظ بالسر لنفسه في ذلك الوقت. فقد ملأ الصحف المحلية بقصائد الغزل، وكان الكل يعرف من هي السجينة ذات الفم السلاف عند دجلة. إلا انه تعلم درسه منذ تلك الحادثة: إياك أن تجعل ذهنك عبداً لامرأة واحدة! فهناك من خير الله كثير منهن في كل مكان. وبنفس الطريقة سيتعلم الآن درسه السياسي.

أردت العودة بالحديث إلى سلافة، لكن صاحبي ما كان بالرجل الذي يؤتمن على ذلك الموضوع. وما كنت مستعداً لجعلها موضوعاً لإحدى أهاجيه المقذعة.

قال توفيق بعد فترة: «أنذهب إلى شهرزاد أو إلى –» أمسك، ونظر نحوي نظرة حيرى.

فقلت: «نعم»؟

ضاقت عينا توفيق، وفيهما حدّة السكين، تنقلتا، ثم عاد إليهما الهدوء، وأخيراً سألني: «هل تعرف فندق القمر الطالع»؟

– «معرفة وثيقة».

– «حقاً»؟

– «قضيت فيه عدة أسابيع أول ما أتيت إلى هذه المدينة. كان في تلك الأيام يدعى فندق المدينة».

– «هل تحب أن ترافقني لرؤية صديق قديم لي هناك»؟

– «هل أعرفه»؟

– «أظن ذلك. عبد القادر».

– «تقصد عبد القادر ياسين»؟

– «نعمِ».

– «ولمَ لا تدعوه على التلفون ليأتي ويرافقنا إلى شهرزاد»؟

فأطلق توفيق ضحكة ساخرة قصيرة وقال: «لا يستطيع الخروج»!

– «ولمَ لا»؟

– «لأنه مطلوب من قبل الشرطة منذ يوم المظاهرات. لقد ترك بيته ولم يجد ما هو أفضل من الانتقال إلى فندق طريقاً للهرب. بل انه غيّر اسمه: فهو لا يعرف الآن بعبد القادر ياسين بل بعبد القادر الحاج حسين. وهذا هو اسمه عند صاحب الفندق، وهذا هو اسمه في سجل النزلاء الذي تفتشه السلطات كل يومين».

- ١٩ -

في فندق القمر الطالع وجدنا عبد القادر منطرحاً على سريره ببيجامته دون غطاء، يقرأ. وقد جفل حين رآني أدخل مع توفيق. إلا انه مد ذراعيه لمصافحتي محاولاً التظاهر بالهدوء. وكان الوجه الجمجمة، ذو العينين الكرويتين، قد اسودّ بحصيد ذقن لم تحلق لعدة أيام. ونودي على خادم أعطاه توفيق بعض النقود وقال له: «هات لنا ثلاث زجاجات بيرة من المخزن الذي تحت الفندق». فاحتج عبد القادر، إلا ان توفيق صارحه برفق: «أنت لا تملك ثمن شاي، دع عنك البيرة».

فقال عبد القادر: «لا بأس يا حضرة الشيخ مصاص الدماء. وهل يستطيع محامٍ فقيرٌ في المدينة أن ينافس ملاّك الخيول والماشية»؟

فرد توفيق: «لن يستطيع ذلك مطلقاً. اجلس يا جميل. حملة الشهادات هؤلاء هم أشد الناس حسداً تحت الشمس. أرجو المعذرة! فأنت من حملة الشهادات أيضاً، أليس كذلك؟ أنتم جميعاً متآمرون للحصول على السلطة، أعرف هذا، وحين تخفقون تلجأون للسرية وتطلقون اللحى وتعيشون على الضغينة».

فقلت: «الشيء الوحيد الذي يبقيني حيّاً هو فكرة الحب، الحب وليس السلطة».

وقال عبد القادر موجهاً كلامه لي: «لا تنسَ أن توفيق نفسه خريج كلية. أربع سنوات كاملة من دراسة الحقوق ببغداد.»

فقال توفيق وقد عقص شفتيه احتقاراً: «بْشِهْ! أربع سنوات من الإصغاء لمحاضرين بلغ إيماني بهم إيماني بحفنة من البغايا. كانت تلك فترة لا تحتمل لولا طلبة مثلك ومثل عدنان. إلا انكم كلكم تمدون أيديكم مسلحين بأسلحتكم الفكرية الجديدة طلباً للسلطة، لأنكم وضعتم كل ثقتكم بأسلحتكم – ولا شيء عداها. أنظر. كل الأقطار شرقيّ البحر الأبيض المتوسط تمزقها إلى مزق جماعات السياسيين المتنافسين أبداً، الذين تقتلهم الغيرة أبداً، والذين يأتون إلى السلطة دائماً عن طريق نوعٍ من الإرث. أنا أتفق معكم في ذلك. ولكنني أتخيل اليوم الذي ستتمزق فيه هذه الأقطار تمزيقاً أشد وأبلغ على أيدي حملة الشهادات الذين سيكونون أكثر أنانية، وأشد نفاقاً وخنوعاً من أسلافهم، وأقل منهم عطفاً بكثير. إن كنت تعتقد أن لاشيخ يطحن وجوه أبناء عشيرته فما عليك إلا ان تنتظر لترى كيف يطحن حامل شهادة الدكتوراه وجوه الجميع بلا تفريق، من دون حتى لمسة الكرم تلك التي نتباهى بها. وما قد يفعله الشيخ بطريقة عشوائية سيفعله حامل الدكتوراه الجديد بكل ما تتصف به المعادلة الكيميائية من قسوة وشمول».

قال عبد القادر: «في غمرة الصراع الطبقي لا بد للعلم والمعرفة أن يُسْتَغَلاّ استغلالاً كاملاً. علينا أن نتصف بالشمول والقسوة. ولكن لنترك الحديث عن ذلك. فالمشكلة هي انه بينما يسهل التأثير على انصاف الجهلة، فإن الجهلة هم الذين يستحيل إقناعهم». وللحظة قصيرة شعّت عيناه الكبيرتان في رأسه كمصباحين قويين، ثم خبتا.

فتح الخادم الباب دون أن يطرقه، ودخل حاملاً ثلاث كؤوس وثلاث زجاجات من البيرة على صينية. ثم فتح الزجاجات واحدة واحدة، وصب البيرة وأعطانا إياها. وحين جاء دوري حدّق في وجهي برهة فعرفني. قال وهو يبتسم: «أهلاً وسهلاً أستاذ. لم نرك هنا منذ أشهر».

– «حقاً. كيف أنت»؟

– «بخير، عمّي زرنا أكثر في المستقبل». ثم خرج.

وعلق عبد القادر مع ابتسامة ذات معنى: «ها.. ها.. إذن فقد كان من عادتك المجيء هنا»؟

ففسرت له ظروف سكني في الفندق وقلت: «كانت غرفتي هي الغرفة المجاورة لهذه».

- ٢٠ -

كان عليّ الانتظار، سجين صمتي، بينما تمر دقائق الحر والخوف ببطء وإلحاح الدود الزاحف على جثة. بيوت المدينة كلها أخذت تتجشأ وتتقيأ محتوياتها الانسانية إلى الشوارع، لاهثة تحت لفح الشمس الذي رشفته خلال النهار. الشحاذون، والعميان، والمشوّهون، والضامرون، كل هؤلاء تربّعوا أو اضطجعوا على الأرصفة المعمّدة ومدّوا أصابعهم الناحلة الطويلة، يتلو بعضهم آياتٍ من القرآن عن مغفرة الله وغضبه. الشباب بمقصانهمً البيضاء تماسكوا بالأيدي ثُلاثَ ورُباعَ، وضجوا ضحكاً وسباباً، وتبختروا في طريقهم إلى السينمات المكشوفة، والمقاهي المكشوفة، والبارات المكشوفة، التي تسبق زيارتها الذروة القصيرة في البيوت السرية، وشققت أنا طريقي عبر كثافة الحشد الصاخب باحثاً دون أمل عن وجه سلافة بين المشاة والمنادين والسُوّاق. وحدثت نفسي انني، بمرور الزمن، سأرى وجهها، سأسمع صوتها لأعرف لماذا طلبت مسدساً، فجأة، ودون تفسير، ثم ذهبت مع والديها إلى بعقوبة. بمرور الزمن – وزحفت الدقائق على يدي كالديدان.

– «اسأل سلمى عن الأمر». هذا ما ظللت أردده. وكل ما عليّ أن أفعله هو أن أتلفن لها. لكن سلمى لم تعد صديقة ألجأ إليها ساعة المحنة. كل ما عليّ أن أفعله هو أن أسألها متى ستعود سلافة، وما إذا كانت ستعود أصلاً، وربما عن سبب ذهابها. إلا ان سلمى قد جعلت الشكوك تساورها، وربما أمست تعتبر نفسها منافسة لسلافة. وفوق كل شيء، كنت واثقاً انني ما إن أتصل بها حتى تطلب لقاء في ذلك البيت الخالي.

كان عليّ الانتظار، سجين صمتي، ماشياً خلال الفيض البشري في شارع الرشيد، باحثاً عن الوجه الوحيد الذي أعرف انني لن أراه بين تلك الأعمدة المصبوغة في ذلك البحر من الأضواء الكالحة، وأسَنِ المجاري، ذلك البحر الذي عجّت فيه الأذرع والوجوه، العمامات والعباءات، ضحكاً وعذاباً، من دقيقة لأخرى، خلال الليل الطويل الراكد الهواء.



في الكلية صباح اليوم التالي طالعني هذا الخبر في الجريدة:

«في التاسعة من مساء البارحة قام رجال الشرطة، بناءً على إخبارية من مصدر مكتوم، بكبس فندق القمر الطالع واعتقلوا شخصاً يدعى عبد القادر ياسين وجد في سريره يقرأ. ويذكر القراء ان عبد القادر ياسين هو كاتب قصة قصيرة ومن المساهمين الدائمين في جريدة «تلغراف الصباح» التي ألغت السلطات إجازتها منذ فترة وجيزة».

فقلت في نفسي: «فلنأمل أن يأخذ توفيق هذا الخبر بعين الاعتبار».

كنت قد طويت الجريدة حين وخزني ألم حاد في مؤخرة عنقي. لقد داهمتني فكرة رهيبة، وكدت أفقد السيطرة على أصابعي الرعشة وهي تفتح الجريدة بعنف مرة ثانية على صفحة الأخبار المحلية. لم أكن قرأت أحد الأخبار بعناية كافية – «جسد فتاة يكتشف في قناة ريّ مطعوناً في سبعة عشر موضعاً.. اكتشف جسد فتاة يسد إحدى قنوات الريّ في قرية بني حمد قرب بعقوبة. وقد شوّه وجهها تشويهاً جعل التعرف عليها مستحيلاً. ويدعي القرويون المجاورون أنه ليس هناك فتاة مفقودة بين من يعرفون. والشرطة بقيد التحقيق».

هرعت للتلفون الكائن في غرفة المدرّسين وتلفنت إلى بيت سلمى. إلا ان صوت رجل هادئ أجاب: «أحمد الربيضي يتكلم».

فقلت: «آ، صباح الخير أحمد بك». لا أدري مقدار القلق الذي لاحظه في صوتي. «أنا جميل فران».

– «صباح الخير أستاذ جميل».

– «هل يمكنني التكلم مع السيدة سلمى»؟

– «أخشى أنها غير موجودة في هذه اللحظة. خير»؟

– «آ.. أردت سؤالها عما إذا كانت تعلم بموعد عودة سلافة. فأنا، كما تعلم، أعطيها دروساً خصوصية».

– «نعم، نعم، أعلم ذلك. سأقول لسلمى أن تتلفن لك، إن أردت. هل اتصلت بك يوم أمس»؟

يا للأحمق.

– «لا لم تفعل».

– «بودنا أن تحضر للعشاء يوم السبت القادم».

– «هذا لطف زائد منكم... آ...» وكدت أفضي بالسؤال الرهيب عن سلافة إليه، لكنني قلت: «في أي وقت رجاء»؟

– «في الثامنة والنصف من مساء السبت».

– «شكراً جزيلاً. في أمان الله».

وبعد قليل كانت سلمى على التلفون، كما توقعت.

قالت: «أعلمني أحمد بمكالمتك. اسمع».

– «نعم»؟

انخفض صوتها إلى نغمته التآمرية التي لا تكاد تسمع، «هل يمكنك المجيء إلى... الشقة الأمريكية... بعد حوالي ثلاث ساعات – قرابة الثانية عشرة والنصف؟ هذا إذن هو اسم البيت الخالي عندها.

– «نعم، إذا استطعت الاهتداء إليها».

– «لن تخطئها. الواجهة الأمامية مصبوغة باللون الأزرق. هل أعوّل عليك بالمجيء»؟

– «نعم، ولكن – مسألة سلافة. هل تعود قريباً»؟

– «سأخبرك عنها حين أراك».

كيف تمكنت من لجم لساني عن أن يقول لها إنني أمقتها، لا أعرف.

بعد ثلاث ساعات أوقفت السيارة التي استأجرتها أمام بوابة بيت أزرق الواجهة. فتحت البوابة ومشيت عبر الممر الاسمنتي القصير، ثم دفعت باب الدخول حيث استقبلني وراءها ذراعا سلمى، فيما التصقت شفتاها الباردتان الطريتان، بشفتي. وفي غرفة الجلوس كانت المروحة السقفية تدور على أسرع درجاتها. وكان ذراعا سلمى حول عنقي.

قالت: «لا بد انك محترّ كثيراً. أتيتك بشيء من البيرة المثلجة هي الآن في الثلاجة».

فقلت: «أنا قلق جداً».

– «ماذا هناك»؟

– «اقرأي هذا الخبر».

تخلصت من حضنها وفتحت الجريدة التي أتيت بها معي على الصفحة المطلوبة. فأخذت الجريدة وأشرت إلى موضع الخبر القصير، ولما قرأته نظرت إليّ وقالت: «ولم يقلقك هذا»؟

– «أليس من الممكن أن تكون الفتاة المشار إليها هي سلافة»؟

فجفلت وامتلأت عيناها برعب مفاجئ: «سلافة؟» ثم عادت الطمأنينة إلى وجهها وقالت: «أنت أبله! ما كنت أعرف انك بهذه البلاهة». وضحكت ورمت الجريدة بعيداً. «هذه الأشياء تحدث أحياناً، ولكن لمَ عساها تحدث لسلافة»؟

– «أليست هي على علاقة سيئة مع أبيها»؟

– «أنا عندي علم بحبك لها، أما أبوها فلا يعرف شيئاً عن ذلك، فلا تقلق».

– «لم تجيبي عن سؤالي يا سلمى».

– «آه. أبله». ووضعت ذراعيها العاريتين حول عنقي مرة ثانية فرأيت جذور شعر إبطيها. سآتيك بكأس بيرة يا حبيبي. سلافة في أمان كامل. وأبوها متعلق بها جداً. وليس هو بالرجل الذي يقتل ابنته ويغرقها في قناة ماء».

أمسكت ذراعيها بكلتا يدي ودفعتهما بعيداً عني بشكل حازم.

– «أرجو أن تكوني على صواب».

بالرغم من البسمة على شفتيها رأيت الألم يشرّب عينيها. وحاولتْ إخفاء حرجها، لكنه كان أوضح من أن يختفي. ولما ذهبتْ لجلب البيرة كانت قد فقدت كل ثقتها وغدت مشيتها مترنحة. وسمعت باب الثلاجة وهو يغلق بشدة في المطبخ، ولكنها لم تعد. وبعد دقيقة ذهبت أنا إلى المطبخ فوجدتها قد انهارت على أحد الكراسي والقنينة بيدها، تبكي بصمت.

قلت: «أرجوك ألاّ تبكي».

فوقعت القنينة من يدها وتحطمت على الأرض، وانتشر السائل الرغويّ في بركة صغيرة تفوح منها رائحة كحولية خفيفة.

– «هيا بنا إلى غرفة الجلوس. الجو هنا حار جداً». أخذت يدها فتبعتني مطيعة، ورأسها مطأطئ على صدرها. وحالما احتواها المقعد انفجرت باكية، وأخذت تعض سلاميات أصابعها محاولة كبح نشيجها.

أخيراً قالت وهي تمسح خديها: «كنت أرجو أن نتناول الغداء معاً، لوحدنا».

– «لم أستطع حجب سلافة عن فكري».

واستطردت كما لو انها لم تسمعني: «أحمد مدعو إلى غداء اليوم، لذا فإنه حين أعلمني بأنك تلفنت فكرت بأن الفرصة قد لاحت لنا أخيراً لننفرد معاً ساعة أو ساعتين. كنت أنتظر مثل هذه الفرصة. أنت لا تعرف ما الذي يجري لي. أن أكون مع الناس كل يوم – الناس الذين أحتقرهم. أن يكون عليّ الاستقبال أو الزيارة كل ليلة. أن أقول الأشياء السخيفة نفسها المرة تلو المرة. أن أقضي ليالي الأرق، الواحدة بعد الأخرى. الجحيم المتسع أبداً، الهوة الهاوية أبداً».

– «هذه حياتكن: إما ما تصفين من حياة، أو ذلك الرعب الذي تحياه سلافة. وليس عند أيٍّ منكن الشجاعة الكافية لفعل شيء ما».

– «معظم النساء لا يشكين. يقضين أوقاتهن بالحفلات، ويملأن بطونهن بالطعام، ويقامرن معظم النهار»؟

– «وهذا في الواقع هو ما كان مقدراً عليك يا سلمى. إنما أنت ذهبت للكلية، ولست تعرفين الآن ما تفعلين بالأشياء التي تعلمتها هناك».

– «أنت تقسو عليّ. أنا لا أستطيع قراءة صفحتين على بعضهما. وكلما فعلت ذلك شعرت بوحش ينفث في عنقي».

نظرت إليّ بعينين احمرّتا وتورّمتا. كانت نظرة ضياع كامل وخجل عميق. واستطردت بصوت تعس: «أفكر بك، بيديك تنتهكانني بينما أعرف، رغم محاولتي النسيان، إنك زاهد بي. إني أتحول إلى تراب، قذارة. لمَ لا تذهب وتتركني وحدي»؟

– «هذا ما سأفعله. فخلال أسبوعين ستنتهي السنة الدراسية، وبنيّتي أن أترك كل هذا الجحيم».

– «يا ليتني أقدر على المجيء معك».

– «من جحيم لآخر؟ بينما أنت هنا يساورك القلق على روحك خشية أن تسقط في الهاوية، وذلك ترف محض، هناك في وطني مليون من الناس يملأون مخيمات اللاجئين ويساورهم القلق على رغيف الخبز يأكلونه وقطرة الماء يشربونها».

– «يجب ألا نذهب هناك. ربما إلى روما؟».

– «أنت تتهربين من المشكلة يا سلمى. ماذا حدث لسلافة؟» وجلست في مقعد يجاور مقعدها.

– «لا شيء. لا شيء أبداً. فقد ذهبت في عطلة قصيرة إلى الريف مع أبيها، أعتقد أنه كان بحاجة لموافقتك قبل اتخاذ القرار»؟

– «أنت تعرفين ان المسألة ليست بهذه البساطة».

– «هل قالت لك أي شيء»؟

– «لا، لسوء الحظ، ولكن؟».

اعتدلت في جلستها مترقبة سماع ما عندي. قلت: «أنا أعلم انك تحبين ابنة أختك حباً جماً، لذا فقد يكون من الصواب أن أخبرك. لقد أعطتني في يوم من الأيام عشرة دنانير لأشتري لها مسدساً. وفي اليوم التالي، وبلا سابق إنذار، سافرت العائلة كلها إلى بعقوبة. هل يبدو ذلك طبيعياً»؟

فاستفسرت باهتمام بالغ: «وهل اشتريت المسدس»؟

– «لا، لم أشتره».

– «لا أعرف ماذا أقول. فمن تراها تريد قتله»؟

– «لا بد أن شجاراً ما قد وقع يا سلمى. وأنا متأكد أنك لم تقولي لي كل ما تعرفين».

فوقفت على قدميها وواجهتني تماماً، ناظرة إليّ نظرة متأملة غريبة بعينيها الواسعتين الثابتتين.

قلت: «ماذا»؟

– «لا فائدة يا جميل. لا بد أن تعرف هذا بعد كل الوقت الذي مضى. ربما حدثت مشادّة كلامية بينها وبين أحد أعضاء عائلتها – ما دخلك أنت بذلك؟ إن كنت لا تريد سكيناً في ظهرك فانسَها تماماً. هي فتاة يافعة وجميلة، ولكنها لن تكون من نصيبك. كفاك تحويلاً للقضية إلى قصة رومانسية. سلافة مثلي. كلانا نحمل في أنفسنا بذور دمارنا. لكن لا تحول علاقتك بها إلى قصة رومانسية أكبر من الواقع. إنها بخير وعافية».

لم أقل شيئاً، فأعطتني يدها التي أخذها بتردد أولاً، ثم جذبتها، كأنني صالحتها، فأتت راكعة أمامي.

قالت: «أبدو قبيحة الآن».

– «بل أنت جميلة، ومجنونة». وحويت وجهها بين راحتيّ، بينما حشرت هي جسمها بين ركبتيّ المنفرجتين، وضممت شفتيها اللذيذتين الحارّتين بين شفتي. وتخللت يدي شعرها الأسود، وأحسّت بالعرق الذي ينديّ عنقها.

قلت: «الجو مثل النار».

فهمست: «اخلع قميصك». وغنّت المروحة فوق رأسينا في دورانها العنيف كأنها محرك جبار. وشعرت بالخدر والتعب والتقزز. فلقد ارتطمت بجدار آخر، وكان عليّ أن أعيد الخطى بحثاً عن طريق جديد.

عرّيت سلمى ونمت معها على الأرض الصلبة العارية. كان جسدها من النوع الذي لا يشيخ: أبيض ناعماً لدناً؛ حاراً وبارداً على التناوب؛ صلباً وطرياً؛ مستسلماً وعنيداً. وتحدرت قطرات العرق البارد على عمودي الفقري.

سألتني وعيناها تضجان بالشبق: «هل تحبني»؟

في داخل رأسي ظلت سلافة ترفع وجهاً واسع العيون يتراجع ويتقدم في إيقاع خاص به. واستعطفت سلمى: «هل تحبني»؟ فلم أستطع الاستجابة إلا بصمت متجهم كصمت العينين الواسعتين الجائعتين اللتين ظلّتا تظهران وتتلاشيان كلقطة قريبة تنطبع على وسع شاشة الخيال داخل رأسي. وامتدت فخذا سلمى الصلبتان الممتلئتان على البلاط العاري كشيء ذي جمال رائع تُركَ خطأً وسط الأثاث، ككسرة من تمثال في غرفة مهجورة. إلا انها أحياناً، إذ تحرك ذراعيها وينضغط نهداها أو يرتخيان، وتنطوي ركبتاها على وقع صوتها (ظل الوجه الفتيّ ذو العينين المذعورتين والفم الراعش يومض خلف عينيّ) كانت تبدو ككشرة ضخمة تقصد ابتلاعي. وتحدياً لهذه الصورة انقضضت بوحشية على فخذيها الصقيلتين ومزقت يداي نهديها الناصعين. وقلت: «إن فُهْتِ بشيء من الحب مرة ثانية قتلتك».

فتمتمت مغلقة العينين متوترة الأصابع: «حبيبي، حبيبي».

ظلت مشدودة لا حراك فيها لبضع دقائق، ثم استرخت تدريجياً. ولفت ذراعيها حولي دون التوقف عن حديث الحب والسخافات حتى أدركتُ أن الساعة تناهز السابعة. وعندما قلت لها ذلك، صاحت: «ماذا»؟ ثم هبت واقفة على قدميها.

قلت: «نعم، وأنا ميت من الجوع».

– «يجب أن أذهب بسرعة. لكن دعنا لا نخرج معاً».

وبدأت ترتدي ملابسها بسرعة وأنا أتفرج عليها.

سألتني: «أتأتي هنا مرة أخرى»؟

فقلت: «طبعاً».

– «سأتلفن لك. لا تشعل أية أضواء قبل أن تغادر البيت. هذا مفتاح الباب الأمامي. أرجوك ألا تنسى أن تقفل الباب حين تخرج. ولا تأخذ سيارة أجرة من أي مكان قريب من البيت».

– «أعرف العيون كثيرة. أليست هذه حياة رائعة؟ آتي لأسألك عن سلافة فأنام معك بدلاً من ذلك».

فهمستْ وهي تقبلني قبلة الوداع: «حبيبي»!

– ٢٢ –

بعد أن ذهبت سلمى لم أستطع لقلقي أن أتخلف طويلاً في البيت الغريب. لذا خاطرت بالخروج وأجلت نظرة حول المكان لأرى إن كان هناك أحد في الشارع ذي البيوت المتصاعدة، وأقفلت الباب بثقة. وضعت المفتاح في جيبي وفكرت: «حتى لو رآني الآن من يشك بي فأغلب الظن أنه سيعتبرني المستأجر الجديد». ولحسن الحظ كان الشارع مهجوراً باستثناء امرأتين بثياب سوداء تقفان قرب كوخهما الطيني على مبعدة حوالي مئة ياردة. وبطبيعة الحال لا أحد يأخذ ساكني الأكواخ الطينية بنظر الاعتبار. إنهم مجهولو الهوية، عديمو الملامح، كأنما هم سوائب لا يدعي ملكيتها أحد.

وعندما بلغت الشارع الرئيسي أخذت أول سيارة أجرة صادفتني إلى شارع أبي نواس. وهناك طالعني نهر دجلة مثقلاً بأشعة شمس دامية تغرب خلف أشجار النخيل. كان السمّاكون وصبيتهم خلف المناضد المرتجلة على الشاطئ قد بدأوا عملهم المسائي. السمك الحيّ يسبح وينتفض في مياه الطشوت. وبين الحين والحين يذهب أحدهم ليخوض في النهر على عمق الركبة نحو بَلَم (زورق) مربوطٍ بعيداً عن الشط ليعود بسمكة أو سمكتين من النوع الكبير، تنتفضان بعنف وهما معلقتان بصنارة في الفم، من مجموعة السمك الحي المحصور بشبكة تغمرها المياه، مربوطةٍ بالزورق الذي يتمايل برفق. ثم يضع هذه الدفعة من السمك في الطشت، وعندما يأتي زبون يرفع له الأسماك واحدة واحدة كي يراها، صائحاً: «بليط!» وعندما يختار الزبون واحدة يتم الاتفاق أخيراً على سعرها يأتي صبي نحيف تكشف دشداشته الطويلة صدراً بارز الضلوع، ويضرب السمكة المتقافزة بالمطرقة على رأسها، ثم يشقها طولاً وينظفها ويثبتها على أوتاد تخرقها، معدَّةٍ على شكل دائرة تحيط بنار صغيرة.

توضع في العادة خمس سمكات أو ست، رأساً لذنب، وقد عُرِّض الداخل المفتوح لنار توقد من أغصان الطرفاء الصغيرة التي وكل بها الوقّاد. وعلى طول الشاطئ، بين المقهى والآخر، تلتهب نيران «السمك المزقوف» الدائرية ويتصاعد دخانها، عاكسة ألواناً متراقصة من الحُمرة والسواد على وجوه وأجساد العفاريت الصغار النشيطين المتحلقين حولها، وقد عبق الهواء بالرائحة السمكية. وبعد أن تطهى السمكة على هذا النحو ترش بالتوابل وتقدم مصحوبة بالبصل والطماطة على صينية نحاسية للزبون الذي ينتظر في أحد المقاهي المجاورة الكثيرة.



توقفت عند إحدى المناضد وطلبت أن تهيأ لي سمكة مزقوفة.

وجدت نفسي بعد قليل أفضي بأفكاري إلى توفيق بتفصيل واشمئزاز. فكلما أتى توفيق إلى المدينة ظهر في كل مكان – رغم ان من السهل أن تتوقع انك إن سرت في شارع الرشيد أو شارع أبي نواس في ساعة معينة فسترى معظم أصدقائك. كان توفيق قد رآني بعينه البدوية الثاقبة فهرع إليّ على الفور، وصادف مجيئه مجيء المزقوف على صينية يحملها صبي صغير متسخ الوجه. كانت السمكة من الكبر بحيث تكفي اثنين على الأقل، وأسعدني أن يشاركني في العشاء صديق. ومضغ توفيق طعامه بصمت مصغياً إليّ، بينما مضيت أنا في الحديث، على طريقته، دون وقفة. وفي الختام قلت: «كما ترى، المشكلة، كما كان عبد القادر سيقول لو لم يعتقل في الليلة البارحة، هي مشكلة الوقت. الوقت هنا شاسع لا يرحم».

مسح توفيق أصابعه بقطعة مما تبقى من الخبز المرقوق وقال: «مسكين عبد القادر. نفس أخرى ضائعة. والله لقد أصبت بصدمة حين علمت بعد عودتي من ملهى المتروبول انه اعتقل. الوقت هو المشكلة في نظرك؟ ما هذه إلا فكرة غريبة خاطئة أخرى».

– «أستحلفك بالله يا توفيق ألا تبالغ بهذه المواقف «البدوية». فهي بالغة الزيف. وإن كنت ستحدثني عن الصلاة وسط أفق لا يُحَدّ، فآخذ بالصراخ! حتى الصلاة لا تستغرق أكثر من جزء ضئيل من ساعات اليوم الأربع والعشرين – التي تتتالى إلى أيام عقيمة. ولن أصغي لحديث ركب الخيل العراب بَعْدَ أن استبدل الشيوخ الفرسان جيادهم بسيارات الكاديلاك».

– «هذا لا يغير موقفنا الأساسي من الزمن. الزمن كما تصفه غير موجود بالنسبة لنا. ولا يقلقنا مرور ساعات النهار».

– «ما أصدق ما تقول! فهناك القليل القليل مما عليك فعله في اليوم بطوله، فأي نفع من القلق على الساعة الواحدة»؟

نظر إلى غابة النخيل البعيدة المرتسمة على سماء حمراء كالنحاس وقال: «ما يجب فعله سيتم فعله ما دامت الشمس تشرق ويطل القمر من فوق الأفق. أما العجلة فمن الشيطان».

– «بلا شك – خاصة إن لم يكن ثمة ما يفعل بين شروق وشروق. لكن هذه هي المشكلة بعينها. ليس ثمة ما يفعل خلال الأبدية الكائنة بين ساعة وساعة».

– «أنا أعرف ما يقلقك يا جميل. لقد رأيت عدداً أكبر مما يجب من أبراج الكنائي خلال حياتك».

«حقاً، بكل ما فيها من الساعات التي لا تدق الساعات وحسب، بل الأرباع والأنصاف وثلاثات الأرباع ؟»

وفجأة أمسك ذراعي بيد زينها خاتمان فضيّان بسيطا الصياغة: حركة توددية كانت استجابتي لها شعوراً فجائياً بالكراهية.

سألني: «هل أنت واقع في الحب»؟

فأجبت متجهماً: «نعم».

فمال إلى الخلف، وطرق المنضدة براحة يده، وراح يقهقه: «يا مسكين! لقد أتيت أتعس ما يمكن أن يأتيه رجل. الآن فهمت لماذا يثقل عليك الزمن. فالحب هو مبلور الزمن، ذاك الوهم الأكبر».

– «تقصد محطِّم الزمن».

بينما كان الهواء الرطب الحار يرتعش على وقع الأغاني الكهربائية والأصوات الانسانية اللاغطة بالحديث. ظلت نيران المزقوف الصغيرة تلتهب على طول الشاطئ، وانعكست آلاف الأضواء على صفحة النهر كآلاف الشعل الراقصة. نظرت حولي وناديت خادم المقهى لينظف المنضدة ويأتينا بكوبين من الشاي.

قلت بعد مضي شيء من الوقت، وبأقل ما يمكن من الجديّة: «لو صادف أن احتجت إلى مسدس، فهل بإمكانك تحصيله لي»؟

– «مسدس»؟ كانت متعته أكبر من دهشته.

– «نعم، مسدس. سأعطيك ثمنه طبعاً. لا تنس انني قد لا أحتاجه على الاطلاق، ولكن»...

– «ولم لا تحصل على مسدس، سواء احتجته أم لا؟ متى تريده»؟

– «أوه، لا أدري».

– «غداً»؟

– «لا، لا، ليس بهذه السرعة».

فضحك وقال: «أما ترى؟ لا تستطيع حتى أن تحدد حاجتك. ماذا قلت لك؟ لا عليك. اعتمد عليّ. ستحصل على مسدسك، وأتمنى لك التوفيق في استعماله»!

– ٢٣ –

تقع الأحداث أحياناً بشكل مضحك حتى لتشعر بالرغبة في البكاء. وهي في ذلك لا تقال سوءاً عن المصائب التي تشعرك بالرغبة في الضحك، وشر البلية ما يضحك، كما تقول العرب.

كنت قد خرجت من الحمّام لتوّي مرتدياً روبي عندما واجهتني صاحبة النزل وقد بدت عليها إمارات القلق، لتمنعني من الذهاب إلى غرفتي. وقالت بلهجة حانقة: «صباح الخير». ثم أضافت: «هناك فتاة في غرفتك». فقلت غير مصدق: «فتاة»؟

– «أنت تعرف انني لا أحب أن تزور المكان فتاة. ثم ان الوقت مبكر جداً. هذا يعطي النزل سمعة سيئة». ثم تابعت كلامها بنغمة خفيفة من التأثر: «لكنها تبدو شديدة القلق. وقالت انها لا بد أن تراك ؟».

فقلت: «عن إذنك». ودفعتها جانباً وهرعت إلى غرفتي. كانت سلافة جالسة على كرسي. فوقفت وارتمت بين ذراعيّ.

في غمرة الفرح الطاغي أوقفت كل ما كانت تريد قوله في حلقها بالقبل. قبلت فمها وخديها وعينيها اللتين رطبتهما الدموع. ولم أستطع التفكير بما حصل، غير انها كانت هناك، حيةً، حقيقية، طريةً كالغصن الأخضر، وبين ذراعيّ.

وقالت من بين القبل: «وصلت من بعقوبة توّاً. بالقطار. وما أكبره من قطار». ومضى بعض الوقت قبل أن يرسخ في ذهني معنى الكلمات.

قلت بقلق لاهف: «ووالداك»؟

– «أحسب انهما سيفتقدانني حوالي هذا الوقت».

– «إذن أنت هاربة»؟ وحدقت في وجهها. كانت شاحبة اللون وعيناها متورمتين وشفتاها جافتين تحت الطلاء الأحمر.

قالت: «ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك»؟

– «أنا في حيرة مطبقة يا سلافة. فمنذ أن سألتني الحصول على مسدس وأنا لا أصادف لحظة راحة».

– «هل حصلت على المسدس»؟

– «وما حاجتك بالمسدس»؟

– «سأخبرك. وأرجو ألا تحسبني مجنونة».

– «هل يتعلق الأمر بأبيك من قريب أو بعيد»؟

فقالت غاضبة: «بالجميع. ما أفظع الأمر كله. سأشرحه لك فيما بعد».

ضممتها بذراعيّ وأزحت شعرها الأسود عن خديها الشاحبين بيد راعشة، وقلت: «لا بد انك عانيت الكثير يا حبيبتي». وتمنيت لو كان المسدس معي. وفكرت انه يجب عليّ أن أذهب إلى توفيق لالتماسه أن يحصل لي على مسدس بأسرع ما يكون، مهما يكن غرض سلافة منه.

طُرق الباب طرقة خفيفة جفلتْ على إثرها سلافة من ذراعي إجفال المذنب. وعندما فتحتُ الباب طالعتني عينا صاحبة النزل الصغيرتان بنظرة قلقة. وتمتمت وهي تستدعيني خارج الغرفة: «أرجوك يا سيد جميل». فخرجت وأغلقت الباب خلفي. وعادت تقول بصوت خافت تماماً: «أرجوك ألا تغضب. ولكن هل تنوي إبقاء الفتاة هناك»؟

فنفد صبري تماماً، وقلت: «جاءت من مكان بعيد لتراني، فهل تتوقعين مني أن أرميها في الشارع»؟

– «لا بأس. إذ يبدو انها من عائلة محترمة».

– «من عائلة محترمة، طبعا».

ولدهشتي البالغة تألقت عيناها وقالت بابتسامة خبيثة: «بارعة الجمال أيضاً».

– «أنا مسرور لأنك تحبينها. هل لي أن أسألها الانتظار في البهو حتى أرتدي ملابسي»؟

– «بكل تأكيد، سيد جميل. و...آ... أتحب أن أُعِدَّ لكما فطورا»؟

فقلت: «أنت امرأة عظيمة!» فارتعشت عيناها فرحاً.

وسألتني سلافة حين عدت للغرفة: «ماذا هناك»؟

– «اقترحت صاحبة النزل أن تُعِدَّ لنا فطورا».

فقالت: «لا أستطيع أكل أي شيء». وجالت عيناها اللتان لم تبارحهما نظرة الهارب المطارد، في أنحاء الغرفة: «وددتُ دائماً أن أرى هذه الغرفة. حلمت بها طويلاً، ولكنها تختلف عن غرفة أحلامي، إذ ان تلك كانت دائماً تطل على البحر، مما أفزعني لسبب من الأسباب».

– «أنت فتاة شجاعة». وأمسكت كتفيها بيدي. كانت سمراء، ناحلة، ناعمة، ولا معين لها: «لكنك لن تكوني وحدك بعد الآن. هلاّ انتظرت في الردهة لحظة حتى أرتدي ملابسي»؟

فخرجت، وبينما كنت أرتدي ملابسي وجدت بين الأشياء المختلفة وقطع النقود المنتثرة على المنضدة، والتي أعدتها إلى جيبي، مفتاحاً غريباً. فعقدت العزم على خطة.

قلت لسلافة: «هيا، لنخرج».

– «إلى الشارع»؟

– «تقولين ذلك كما لو اننا سنخرج عاريَيْن».

فضحكتْ. أخذتُ يدها وقدتها إلى باحة الدرج. وقلت: «أتعرفين أنك أجمل امرأة في بغداد؟ وبالمناسبة، ترى هل نجد عبد بانتظارنا في الأسفل، والخنجر بحزام»؟

– «عبد»؟ اتسعت عيناها الجميلتان الواسعتان أكثر من أي وقت مضى. «عبد مات».

– ولما خرجنا من سيارة الأجرة بانَ على سلافة الذهول. قالت: «هذا بيت سلمى الذي يسكن فيه الأمريكان».

– «أخلوه».

– «واستأجرته أنت»؟

– «لم أستأجره بعد. ولكن مفتاحه معي».

وفتحت الباب. «ما كانت صاحبة شقتي لتتركنا وحدنا في الغرفة». ولو سألتني سلافة عندئذ لمَ كان المفتاح معي لكذبت عليها. فقد أحببتها تلك اللحظة حباً أعظم من أن يسمح لي بالحديث عن خالتها.

خلف الباب، حيث تلقتني سلمى أمس فقط بشفتين تَوّاقتين زانيتين؛ أمسكت وجه سلافة البريء بين راحتيّ، ذلك الوجه الشاحب الساخن، اللحم والرخام، الذي كان سجلاً للألم والتمرد والخوف.

قلت: «هنا سنكون وحدنا لساعة أو ساعتين».

كان الصباح قد أضحى حاراً، لذا شَغَّلْتُ المروحة السقفية. وفي ذلك الجو من الأمن الزائف حدثتني سلافة وهي بين ذراعيّ تارةً، بعيدةٌ عني تارةً أخرى، بقصة الأيام القليلة الأخيرة. وأنا أعيد رواية قصتها هنا كما هي، وبدون المقاطعات والتعليقات العديدة التي أبديتها أنا في ذلك الحين، والتي أكّدتْ للآلهة، التي لا علاقة لها بالأمر، قسوة المفارقة التي تحب.

قال أبي: «سلافة، لا تعانديني، لا بد أن تتزوجي توفيق الخلف. فأبوه الشيخ عبدالله الخلف صديق قديم لي وعزيز عليّ. وعنده من الأتباع قرابة الألفين من أفراد عشيرته المسلحين. وكلمته بينهم قانون. عشيرة الخلف، إن كنت لا تعرفين، عشيرة قديمة حارب أجدادها من أجل النبيّ وأخيراً استوطنوا هذا البلد كفاتحين. أراضيهم شاسعة وماشيتهم لا تحصى. ولا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أخيّب رجاء الشيخ عبدالله. فهو يريدك لابنه وأنا أجد الولد لطيفاً جداً. كثير الكلام إلى حدّ ما، حتى في حضرة أبيه، لكنه مع ذلك لطيف. ولا شك انه سيكون مثل أبيه نفوذاً عندما يحين الوقت الملائم».

كان آل الخلف قد ترددوا علينا ثلاث أو أربع مرات، ولاح ان والدي وعدهم خيراً. لكنني رفضت للمرة المائة أن أصغي لهذا الكلام. وكلما فتح والدي الموضوع زادت مقاومتي صلابة. قلت له:

«تدعي انك تحبني كثيراً. ورغم ذلك تقذف بي إلى مجرد بدوي كشيء لا قيمة له».

كان عمي أحمد الربيضي حاضراً، وخالتي سلمى كانت حاضرة، وكذلك أمي. كانوا جميعاً حاضرين لإجباري.

صرخ الربيضي: «بدوي! إنه من أغنى رجالات البلد».

قلت: «لا يهمني ذلك. فلست قادرة على تصور نفسي «وجة شيخ بعباءة وكفية وعقال».

فقال والدي: «ولكن ابنه – وهو الذي ستتزوجينه، لا الوالد – خريج كلية. درس في كلية الحقوق. ماذا تريدين أكثر من ذلك»؟ ثم استدار نحو خالتي وقال: «سلمى، أرجو أن تقنعيها. فهذه هي المرة الثالثة التي يأتي بها الشيخ عبدالله مع أعيان عشيرته. والمسألة تزداد إحراجاً، خاصة وانني ألزمت نفسي تقريباً. سيقولون ان عماد النفوري عاجز عن تأديب ابنة له في العشرين من عمرها. وأنت تعرفين حالة القلب التي عندي. أنت أيضاً تعرفين ذلك يا سلافة، أليس كذلك؟ أنت لا تريدين إثارة غضبي يا بنيَّتي، أليس كذلك؟ لا بد أن تدركي أهمية هذا الزواج بالنسبة إليّ. أرجوك يا سلمى، اقنعيها. هيا بنا يا أحمد، فلنترك النساء لوحدهن». وتركانا لوحدنا.

إلا أن أمي وسلمى كانتا ضد هذا الزواج. كانتا ضده منذ أن فتح أحمد الربيضي الموضوع، قبل ذلك بأربعة أشهر تقريباً.

ذهب أبو توفيق إلى زوج خالتي أولاً لأن كليهما عضو في مجلس الأعيان. كما أن للعينين مصالح مشتركة. فرغم أن أحمد من سكان بغداد إلا انه يعتمد على الدخل الضخم الذي تدره عليه حقول شعيره في الجنوب. وأمن مزارعيه، ومن ثم أمنه هو، يعتمدان كثيراً على حسن نية العشيرة المجاورة، عشيرة آل الخلف، التي تستطيع، إن هي أرادت، أن تجعل ظروفهم صعبة جداً. قبل ثلاث سنوات نشب صراع وحشيّ بين الجانبين انتصر فيه آل الخلف لتفوقهم في العدد والعدة. ونتيجة لذلك أخذ معظم مزارعي الربيضي بالهرب إلى أماكن مجهولة هم وعائلاتهم. وأخيراً تدخّل أحدهم وجمعَ بين أحمد وعبدالله الخلف وتم تصالحهما. وكان على زوج خالتي أن يذبح عدداً كبيراً من الخرفان وليمة لعدوه، وذهب مبلغ كبير من المال لا أعرف مقداره إلى جيب الشيخ قبل أن يوافق على وضع حد للخصومة الدموية. ومع ذلك فإن صداقة مبهمة حلّت، بشكل لم أفهمه أبداً، محل العداوة اللدودة بينهما، وفكر أحمد انه، لتوثيق عرى هذه الصداقة، ليس ثمة أفضل من زواج بين العائلتين. وهكذا يكون عليّ أن أتزوج ابن الشيخ الذي لم أره في حياتي من أجل منفعة أحمد الربيضي!

تمكنت إذن من أن أفهم بوضوح سبب حماس زوج خالتي لهذه الزيجة. فقد ظلّ يذكّر والدي بالأراضي التي ستضاف لأراضيه. وبالهدايا النقدية السخية التي سيتلقّاها. وكان أبي قلقاً منذ زمن بشأن استثمار مالي كبير في مشروعين سكنيَّين يشرف على معظمهما اليهود، لأن هذين المشروعين فشلا فشلاً تاماً بسبب الحرب في فلسطين. ولدهشتي العظيمة اقتنع والدي بأن هذا الذي يسمّى بالتحالف بين عائلتنا وآل الخلف سيضع حداً لأزمته المالية. طبعاً أبي لم يشر إلى مثل هذه الأمور في حديثه معي. ورغم أنه شدّد على أهمية الزواج فإنه ما كان ليشير إلى انه سيفرّط بي لقاء كسب ماديّ صغير.

لكنني ظللت أقول، من هو توفيق هذا؟ وإذا درس في كلية الحقوق فلا بد أنه رجل مثقف. لماذا إذن يستغل مكانة أبيه بهذه الطريقة البغيضة؟ سمعت انه صديق عدنان، لكنني سمعت أيضاً انه من النمط المتسكع الذي لا ترجى منه فائدة، والذي يأتي إلى بغداد بين حين وآخر للسكر في الملاهي وزيارة المومسات. والنساء يسمعن كل ما يخطر ولا يخطر على البال، كما تعرف. بل انني سمعت انه قتل قبل عامين أو ثلاثة أحد مزارعي الربيضي، ولكنه لم يتهم بشيء احتراماً لاسم أبيه ونفوذه. قبل عام أو أكثر ربما كنت أتزوجه لمجرد الخروج من بيت أبي – ولو ان الأرجح هو أنني ما كنت لأفضل البيت العشائري عليه. إلا انني تغيرت، تغيرت، تغيرت، تغيرت تماماً خلال الأشهر القليلة الماضية. أي اختيار كان من نصيبي في حياتي حتى الآن؟ هذا ما ظللت أكرره على نفسي المرة تلو المرة. أية قرارات اتخذتها بنفسي أنا وتساءلت عن طبيعة هذا الاختيار ما سيكون. حب والدي يلقي عليّ عبئاً ثقيلاً. فهو حب أنانيّ عنيد محا شخصيتي تماماً. أتراه احتفظ بي كالراهبة، بعيداً عما يحسبه شراً، من أجل كبريائه فقط؟ وهل يلقي بي الآن لصديقه العزيز، الشيخ عبدالله، كي يحطم تلك الكبرياء نفسها؟ أين هي حرية الاختيار التي أُعْطِيتُها؟ هذا هو ما أسأل نفسي عنه. وهنا لاحت الفرصة. قلت لأبي: «لا، لن أتزوجه. سأتزوج رجلاً أحبه».

– «جواب سخيف». هذا ما قاله أبي باحتقار.

إلا انه زاد مع مرور الأيام إصراراً. ولا أعلم ان كان توفيق قد أُخْبِرَ برفضي له، إلا انني عقدت عزمي على المقاومة. لقد صممت على تكييف حياتي بيدي، حتى ولو عنى ذلك الهرب من البيت. وقد وقعت بحبك، وأعطاني هذا الحب نوعاً غريباً من الشجاعة أشبه بيد في الظلام تدفعني مرة وتجرّني أخرى. ووددت أن أحدثك بذلك، إلا انني لم أجرؤ. فمثلما كنت أنا الفتاةَ الخطأ بالنسبة إليك – ألم تقل لي انه يستحيل التواصل معي وانني سجينة؟ – كنتَ أنتَ الشخصَ الخطأ بالنسبة إليّ. مسيحي، غريب، لاجئ، مفلس – كل شيء... ومع ذلك زاد حبي لك أكثر وأكثر، وأعطاني هذا الحب شجاعة أكبر وأكبر. وصممت على الزواج منك، وبدأت بكتابة رسالة يوميات تلك لك.

ذلك المساء الذي أعطيتك إياها فيه، عاد أبي إلى موضوع الزواج وتوفيق وكأنه مدفوع بغضب من الله عليّ. قبل ذلك بساعتين فقط كنت بين ذراعيك – فكيف يفتح الموضوع الكريه – لكنه هذه المرة كان مختلفاً: كان قد وصل نهاية الشوط. قال انه تكلم مع توفيق الذي وصل المدينة لتوه، وأعجب به كثيراً. وقد حدد موعد الزواج. قال: «سيكون ذلك بعد أسبوع من هذا اليوم». وثارت ثائرتي. وانتفض عضو بجسمي وصرخت: «أبداً، أبداً، أبداً، أبداً». وكان الخادم عبد واقفاً هناك، ولا لي انه ابتسم فطرت نحوه، وفي غمرة غضبي صفعته، فتخاذل إلى ركبتيه وبدأ بالنشيج. أما أبي فقد أمسكني من ذراعي وجذبني جذبة بلغ من قوتها إنني ترنحت إلى الخلف وارتطمت بالجدار. وصرخت وأنا أقف على قدميّ: «جردتني حتى من احترام نفسي. لماذا يتوجب عليّ أن يقف خادم قذر فوق رأسي خلال دروسي؟ لن أسمح له بدخول غرفتي مطلقاً بعد الآن حين يكون المدرّس هناك». فردّ أبي بتجهم: «لن تأخذي أية دروس بعد الآن. ستتزوجين في الأسبوع القادم، وإذا لم توافقي فستذهبين مع زوجك بلا موافقة. وهو سيعرف كيف يكسر هذا الجموع الحرون الذي تبدينه».

صرخت: «سأقتله». انطلقت الرغبة الخبيثة بكلمة! إلا أن أبي بدا وكأنه لم يسمع. وحدق بوجهي بعينين مرعبتين، وخشيت أن يضربني، غير انه لم يفعل، بل أمر عبد بالخروج، ثم تركني هو وحيدة. تلك الليلة لم يغمض لي جفن.

في الصباح جاء أحمد وسلمى. وبحثوا الموضوع نفسه مرة ثانية، إلا انني لازمت غرفتي. كنت أستطيع سماع أصواتهم، وخاصة صوت أحمد، لجوجة مستهترة بينما كنت أنا أفكر بكيفية الحصول على مسدس. قلت انه لا بد من مسدس. سأخفي المسدس حتى يوم الزواج. سأتظاهر بالرقة والطاعة. وفي الليل أقتل توفيق. وإذا دعت الحاجة سأفجّر مخّي أنا أيضاً – ولكن إذا دعت الحاجة فقط. ثم أتت سلمى إلى غرفتي، ولدهشتي وجدتها قد غيّرت موقفها تماماً وغدت من أنصار زواجي من توفيق! مدحته وأطنبت في مدحه، رغم انني كنت واثقة أنها لم تره في حياتها. ثم قالت بلهجة ذات مغزى: «رأيت جميل ليلة أمس».

ولا أدري إن كان وجهي قد فضحني حين قلت: «ثم ماذا»؟

– «اعتقد انك تحبينه».

فقلت بكل ما استطعت إبداءه من الهدوء: «فلنفترض إنني أحبه: ثم ماذا»؟

– «يا عزيزتي سلافة، لا فائدة من ذلك».

– «بل فيه كل الفائدة».

فردت: «جميل يحب سواك».

فحدّقت في عينيها وقلت: «كذابة»!

حدث ذلك يوم تلفنت لك طالبة أن تراني في مكتبة مثيل. وعندما غادرت المكتبة جاءني إحساس رائع بالسلام. فقد شَقَّت عزيمتي طريقاً محدداً، وغمرتني الراحة. كنت واثقة انك ستأتي بعد يومين لآخر درس انكليزي ومعك مسدس ملفوف بكيس ورقيّ أو بغيره. ولم أكن أعلم أن رعباً آخر كان ينتظرني في تلك الليلة نفسها.

كان أبي قد خرج. أما أمي فذهبت مع صديقات لها إلى حفلة نسائية للعب الورق، بينما ذهبت فاطمة الطباخة لقضاء الليلة عند ابنها المتزوج. وكان عبد هو الوحيد من بين الخادميْن الباقيين في البيت الذي يتجول في أنحاء البيت. ولما لم أكن قد نلت قسطاً كبيراً من النوم خلال الليلتين السابقتين فقد نمت مبكرةً. كان الجو حاراً، إلا اننا لم نبدأ النوم على السطح بعد. لذا وضعت مروحة على منضدة قرب السرير وشَغَّلْتُها. ولم يطل بي الوقت حتى غفوت. إلا ان نومي تخللته أحلام مشوشة. وقد جفلت عدة مرات من نومي واستيقظت وأنا أتصبب عرقاً تحت الشرشف المفرد، ودفعته عني ثم جذبته ثانية وعدت للنوم مرة أخرى.

وفجأة انعكس ضوء على الجدار، فصحوت. دخل شخص ما الغرفة. ناديت: «ماما»؟ فلم يجب أحد. وأدرت وجهي نحو الجدار بعيداً عن الضوء وتمتمت: «أرجوك يا ماما، أغلقي الباب». فأغلق الباب. وتقدم الشخص الذي كان هناك وأمسك بغطائي. فجلست في سريري ورأيت على الضوء الباهت القادم من الشباك وجه عبد. كان فمه الفظيع مفتوحاً على وسعه، وهو يلهث كالكلب المتعب. أخيراً تمكن من أن يقول بصعوبة: «سلافة». وانقض عليّ يقصد احتضاني بين ذراعيه. حاولت إبقاءه بعيداً عني والخروج من السرير، إلا انه وضع كل ثقل جسمه عليّ ودفعني إلى الوراء ووجهه المعروق على صدري، ولعابه يسيل على أنحاء جسمي. فرصخت وغرزت أظافري في وجهه، وأردت أن أقلع عينيه بأظافري. إلا انه نتر نفسه متألماً واصطدم بالمروحة نتيجة العراك، فانقلبت ووقعت على قدمه، فقفز إلى الخلف نحو الحائط وهو يبكي. أما أنا فقد ظللت أصرخ: «بابا! ماما!» إلا ان البيت كان يخيم عليه صمت الموتى. فقزت من السرير باتجاه الباب فقفز عليّ كالحيوان الأجرب المسعور، وأمسكني من الكتفين. وفحَّ على وجهي صوته البذيء: «يا عاهرة، أنا أعرف عمَّ تتحدثان طوال الوقت أنت وذلك الولد الغريب بلغتكما الانكليزية، يا عاهرة». وعندما تمكنت من الانفلات منه كان قميص نومي قد قُدَّ حتى أسفل ظهري بمخالبه. ولا أعرف كيف تمكنت من فتح الباب والركض عبر المجاز. إلا انه تبعني لاهثاً نافثاً. وبدا ان ركبتي غير راغبتين في حملي وأنا أترنح في طريقي نحو الباب الأمامي. وفي غمرة ما انتابني من العمى لم أستطع حتى أن أجد مزلاج الباب. لذا فقد قبضني بين ذراعيه من الخلف، وشعرت بأنني أنهار. وهنا سمعت سيارة تقف خارج البيت، فصرخت رغم ان الصوت الذي خرج من خلفي كان مخنوقاً. وفجأة تركني وراح يركض باتجاه المطبخ، فتهاويت أنا على الباب. ودار مفتاح في القفل ودخل أبي. وبعد ذلك غابت الدنيا عني.

وعندما عاد لي من الوعي ما يكفي لإخبار أبي عما حدث جن جنونه وصرخ وقد ازرقَّ من الغضب: «لا بد أن أقتل ذلك الكلب!» وهرع يركض عبر الغرف المختلفة، ليبحث في المطبخ، وفي جناح الخدم عن عبد، راعداً مزمجراً لكنه لم يجد أحداً. تلفن لمركز الشرطة وطلب أن يقبضوا على عبد فوراً في النواحي المجاورة.

كان قميص نومي ممزقاً، والكدمات البشعة في كل موضع من جسمي. ونظرت إلى نفسي في رعب. لقد لُطِّختُ ودُنِّسْتُ. فمن هو المسؤول غير أبي؟ وحين عادت أمي صبَّ جام غضبه على رأسها. سألها صارخاً: هل كان عليها أن تقامر كل ليلة؟ ثم قام بما لم أره يقوم به في السابق أبداً: لطمها لطمة مدوية على الوجه. وأخيراً، وبعد أن شعر باللاجدوى المطبقة، تهاوى على سريري وقد تحول غضبه إلى نحيب ودموع. وراح يردد: «يا للعار، يا للعار الشنيع». كنت مليئة بالحقد، بالكراهية، لكنني أشفقت عليه أيضاً.

في بكرة اليوم التالي وجدوا جثة عبد في النهر عند الجسر العتيق. والظاهر أنه حاول الهروب عن طريق القفز من الحديقة إلى النهر فلم يتمكن من قطعه سباحة. وقد تعرّف بعضهم على الجثة، وتلفن رجال الشرطة طالبين من أبي الذهاب للتعرف عليها، إلا أنه أناب السائق للقيام بذلك.

وهكذا تقرر أن أؤخذ على الفور لقضاء عطلة طويلة بعيداً عن هذا المكان. كما تقرر أن نذهب جميعاً إلى بيتنا الريفي قبل أن تصبح الحادثة موضوعاً للحديث والشائعات في بغداد، إلى حين التمكن من اتخاذ اجراءات أخرى. واتفق على أن يقال لأصدقائنا انني وقعت فريسة المرض الشديد مما استوجب ذهابي. وخشية من أن يسمع السائق أي شيء فاننا لم نشر إلى الموضوع على الاطلاق خلال سفرنا إلى بعقوبة في سيارة الهمبر. ولم يمكن من الصعب أن أخمن أن أبي قد غدا الآن أشد عزماً من أي وقت مضى على تزويجي من توفيق – وبأسرع ما يمكن. لكن كان عليّ أن أتماثل للشفاء أولاً: فمرت أيام طويلة قبلما خفَّ صداعي وتمكنت من تناول الطعام دون قذفه. غير انني خلال كل ذلك كنت أخطط أيضاً للهرب إلى بغداد، إليك.

– ٢٥ –

عندئذ أخبرت سلافة بكل ما أعرف عن توفيق. ولم يكن ذلك بالكثير، حسبما تبيَّن لي. فمن بين كل الذين تعرفت عليهم ببغداد كان توفيق أشدهم غموضاً، وعلى الرغم من حبه للجدل واتقانه له، أشدهم ابتعاداً عن الأمور الشخصية. ولربما كان، من خلال محاولته التحدث بصوت القبيلة، يخفي جانباً كبيراً من هويته الشخصية بمهارة المُقَامِق.

قلت: «توفيق موجود ببغداد في هذه اللحظة».

فأجابت: «انتظاراً لموافقتي في أغلب الظن».

فسألتها بتردد، بشهامة: «هل تحبين لقاءه»؟

– «لا، والعياذ بالله!» وبدا عليها الذكر كما لو انني اقترحت شيئاً مخيفاً. أما أنا فقد عشقت تجهمها، عشقت ذاك العناد فيها. ولكن إذا كان توفيق في مركز العذاب فلربما استطعت أن أداري أمره بنفسي، ولو انني لم أكن واثقاً من ذلك. قلت: «سأحاول إنقاذك». فحدَّقت فيّ عيناها السوداوان الواسعتان وقد أجهدهما الأرق دون أن ترياني. ورغم أني طرف في القضية، ورغم حبي، إلا ان نظرتها الضائعة التعبى جعلتني أحسّ بأنني غريب تماماً في بيت غريب مع فتاة لا تزيد معرفتي بها عن معرفتي للأشباح. وفجأة رأيتُنا وقد انفصمت بيننا العُرى بشكل رهيب. وفكرت: «ما هي علاقتي أنا بهذه الميلودراما المؤلمة»؟ كلها كابوسيّة، مزرية. ومن هو شرير القصة على وجه التحديد؟ لعلَّ فيها من الأشرار أكثر مما ينبغي، وليس أقلهم أنا، العاشق الغادر، وكلنا غرباء، غير حقيقيين، لا يمكن التوفيق بيننا. إلا ان المروحة السقفية بطنينها المحموم أكدت الواقعية، وكذا فعل عرقي المتصبب، وكذا فعل نهدا سلافة الصغيران النافران أثناء تحديقها فيّ، سمراءَ فتّانةً، لا ترى. كان عليّ أن أمثل دور المنقذ مهما كان المأزق، ومهما كانت اللاواقعية.

سمعتها تقول: «لست أخاف الموت».

– «ماذا»؟

– «الموت».

فقلت: «لا، لا، يا حبيبتي». وأخذتها بين ذراعيّ وقبّلت شفتيها. «الحياة هي التي يجب ألاّ نخافها، حتى حين تكون بهذا السوء».

– «اطلب مني أن أفعل أي شيء، أي شيء... حبيبي، هل سينتهي هذا الرعب كله»؟

– «ليس بسهولة. لمَ لم تخبريني عن المشكلة من قبل»؟

– «لم أكن أتصور أن الناس قادرون على المضي في قسوتهم كل هذا المدى، أو أن الأحداث ستتطور إلى هذا السوء. لكنني لم أعد أخاف. اطلب مني أن أفعل أي شيء ؟».

فضحكت وقلت: «ماذا مثلاً»؟

– «لا أدري».

– «اسمعي. لا بد أن أباك الآن في طريقه إلى بغداد».

– «ولا بد انه تكلم مع سلمى بالتلفون».

– «وإن كنت أعرف خالتك. فأحسبها ستبحث عنك في شقتي. وفي هذه الأثناء سيكون توفيق قد اشتري لي مسدساً».

فصرختْ بدهشة بالغة: «ماذا»؟

– «نعم. فمن كل خلق الله، سألت توفيق أن يشتري لي مسدساً كي تقتليه به! أليس هذا رائعاً»؟

فقفزت سلافة إلى ذراعي وهي تصرخ من فرط الفرح.

قلت: «لكنك لن تفعلي ذلك الآن. فأنا أنوي الاتصال بسلمى وتوفيق. سنلتقي هنا ونبحث القضية المجنونة كلها بصراحة، كأناس متحضّرين».

– «لا، لا. أنت لا تعرف ما سيعني ذلك لـ –».

– «أنا أعرف كل شيء. أبوك سيعتبر ان اسمه لحقه العار. الربيضي سيتحرق من الغيظ. حتى سلمى لن يروق لها الأمر. أما توفيق – فإنه سيعتبر الفضيلة العربية قد نهشتها الكلاب. لكننا سنبحث القضية بدون أبيك وبدون الربيضي».

– «أقول لك ان ذلك لن يروق لأبي ولا لعمي أحمد».

– «هل يستأجران القتلة للتخلص مني»؟

– «أبي لن يفعل ذلك. ولكن أحمد – أحمد حقود جداً».

– «خلّي عنك هذه الأفكار يا سلافة. ولنتلفنْ لخالتك أولاً. هل تحبين التكلم معها بنفسك»؟

ودفعتها نحو التلفون، إلا انها تخاذلت: «لا، لا أستطيع. فلست أعرف من أين أبدأ».

أخذت السماعة وأدرت قرص التلفون. فرؤيتي للمرأتين وجهاً لوجه وإعلاني لاختياري بلا مواربة سيضع حداً للوضع المزري. وتساءلت للحظة ترى كيف يكون رد الفعل لدى سلافة لو علمت انني في اليوم السابق فقط قد نمت مع خالتها في تلك البقعة نفسها التي كانت تقف عليها؟ لكنني اعتمدت على حكمة سلمى. ورنّ التلفون بعض الوقت، ثم جاء الجواب من أحد الخدم بأن سلمى موجودة. وعندما جاءت إلى التلفون دل صوتها على انها توقعت المكالمة.

قلت: «هل تستطيعين المجيء إلى بيتك»؟ ونظرت سلافة بقلق ظاهر.

– «الآن»؟ كان في صوت سلمى ارتعاش. إلا انها فيما يبدو كانت تتحاشى الإفصاح عن وجهة الحديث لأيّ مستمع قد يكون مصغياً بقربها.

قلت: «نعم».

– «أحمد بك غير موجود، وأنا خارجة لزيارة آل النفوي. أخشى أن عليك تأجيل زيارتك».

– «يبدو ان عندك بعض الناس. لكن الأمر في غاية الأهمية. أنا الآن في الشقة».

– «تلفن فيما بعد. حوالي الثانية عشرة. سيكون زوجي قد عاد».

– «سلافة معي هنا».

فتوقف الكلام فترة من الزمن. كان عليها أن تستعيد هدوءها قبل أن تجيب باختصار شديد: «لا بأس، لا بأس، شكراً. مع السلامة». وأغلقت التلفون.

كانت الخطوة التالية تدبير أمر حضور توفيق للشقة، وهي خطوة أشد حساسية. إذ يجب أن يعرف مقدماً من سيقابل وسبب المقابلة. وقد أصرت سلافة على انها يجب ألاّ تدفع في وجهه على نحو مفاجئ. بل ربما طالب توفيق بتفسير لأمر الشقة التي قد يبدو، رغم ملكية الربيضي لها، إنها لا تخصّ أياً من الجهات ذات المصلحة بشكل يبعث على الاحترام. لذلك اتفقنا أن أذهب لجلبه وأن أقدم له في الطريق كل التفسيرات التمهيدية.

قلت: «يجب أن ننهي المسألة كلها قبل وصول أبيك».

لكن سلافة ظلت تقول: «لا أصدق. لا أصدق».

– «ستكون سلمى هنا حين آتي بتوفيق».

– «وسأظل أنا وحدي حتى يأتي أحدكم»؟


2004

– «لن يستغرق ذلك طويلاً». وقبَّلتها.

لم يكن توفيق موجوداً في فندق القمر الطالع. فتركت له رسالة فحواها ان عليه المجيء لشقتي حال استلامه لها وان المسألة عاجلة جداً ومهمة جداً. ولما لاحظ داود، صاحب الفندق، قلقي أخذ الرسالة وطواها وضغط على زر، وقال: «سأرسلها مع أحد الخدم على الفور».

– «أعرف أين هو»؟

– «لا، ولكن يمكن للخادم أن يبحث عنه في المقاهي. لا بد انه في إحداها».

وعدت إلى شقتي على عجل، وهناك استقبلتني صاحبة النزل وهي تلهث فضولاً. قالت حالما وضعت قدمي في الردهة: «سيد جميل، هل كل شيء على ما يرام»؟

فقلتك بأهدأ ما أستطيع: «نعم، لماذا»؟

– «غادرت مع الفتاة بسرعة، وبدون فطور».

– «ليس هناك شيء يا مرغريت».

– «ثم أتى صاحبك الشيخ».

– «هل قال شيئاً»؟ كانت لهفتي أوضح من أن تخفى عليها.

– «لا، لكنه ترك لك شيئاً في غرفتك، ورفض أن يسلمه لي».

وفي غرفتي وجدت صُرّة صغيرة على السرير. كانت كوفية ملفوفة على شيء ليس من العسير تخمينه. أقفلت الباب وفتحت اليَشْماغَ فوجدت المسدس معبأ مقدماً. أعدت لفه ثانية بسرعة، وتأكد لي أن صاحبة النزل قد فعلت نفس الشيء قبلي.

تلفنت لسلافة في مخبئها وأخبرتها عن المسدس.

قالت: «أنا قلقة. سلمى لم تأتِ».

فقلت: «سيكون كل شيء على ما يرام خلال ساعة».

– «استعجل، أرجوك».

ولم يكن عليّ الانتظار طويلاً. فقد دخل توفيق لاهثاً بعد أن صعد درجات الطوابق الثلاثة ركضاً.

قال: «هل أنت بخير؟ أفزعتني رسالتك المستعجلة. تصوّرت انك أسأت استعمال المسدس وأصبت الشخص الخطأ. هل أنت بخير»؟

– قلت: «نعم يا توفيق، شكراً». وشعرت بالحرج، بل وبشيء من الخجل. فرغم كل شيء، رغم الحقد الذي لا تفسير له والذي شعرته نحوه في الليلة السابقة، والحقد الذي كان يجب أن أشعر به نحوه ذلك الصباح، فإني أحببته. رأيتني أخزق رأسه برصاصة، ثم أنحني فوقه لتقبيله.

نظر حوله وقال: «أين المسدسس»؟

– «خبأته تحت القفل والمفتاح».

– «أخشى أنه ليس جديداً، ولكنه يؤدي الغرض. أتعرف انك تبدو مريضا»؟

– «اسمع يا توفيق. عندي شيء مهم جداً لأقوله لك».

لم يكن قد جلس بعد، فنظر نحوي نظرة ثابتة بانتظار ما عندي.

قلت: «عن سلافة».

– «ها»؟

– «هلاّ خلعت عباءتك وجلست، رجاءً»؟

فضاقت عيناه ولاح ان القسوة قد أمسكت بالخطوط القليلة التي في وجهه حين قال: «ماذا عندك لتقوله لي عن سلافة».

– «هل تعرف انها كانت في بعقوبة».

– «ثم»؟

– «عادت إلى بغداد اليوم، واقترحتُ عليها أن تراك وتكلمك».

– «عيب يا جميل! هذه مهمة امرأة». واختفت القسوة من وجهه.

– «ليست مهمتي مهمة الخاطبة، بل أنا أقوم بعكس ذلك تماما».

وقبل أن يتمكن من مقاطعتي مضيت إلى القول: «كنت أقوم بتدريس سلافة خلال الأشهر القليلة الماضية، فتعرفت عليها جيداً. لا أقصد ان من السهل التعرف عليها. فمثلاً لم أعلم انك تنوي الزواج منها إلا هذا الصباح. هي لم تشر إلى ذلك إطلاقاً. وأحسب القضية كلها جزءاً من شبكة معقدة من الأشياء. كنت أنا بالنسبة إليها شخصاً غريباً، فلم يكن ثمة معنى لإدال عامل مربكٍ جديد. إلا ان الأمور بلغت قرارها فاضًطرت سلافة، تحت ضغط أبويها، وضغط أحمد الربيضي –».

فهسَّ توفيق من بين أسنانه المطبقة: «ذلك الثعلب المتلصص...» ودلّ وجهه الآخذ بالاحمرار على ثورة وشيكة كان يكافح لكبحها: «ولكن ما علاقتك أنت بكل ذلك»؟

فقلت متجاهلاً سؤاله: «ولا شك ان اليأس قد بلغ سلافة مداه حين وجدت انها مضطرة للهرب من البيت. هل قابلتها في حياتك»؟

– «رأيتها مرتين أو ثلاثاً، لكنني لم أكلمها».

– «مما يدعو للأسف. ربما كنت سترفض. لكن على الأقل، ما كانت هذه المشاكل كلها لتحدث».

– «أخبرني أحمد الربيضي انه تم تدبير كل شيء. وأنا أؤكد لك انني لست مشغوفاً تمام الشغف بالزواج من امرأة من آل النفوي، دع عنك امرأة تتزوج مكرهة. لكن التدبير بدا معقولاً وسلافة بنت جذابة. هل هربت من البيت بسببي»؟

فأخبرته كيف جاءت ذلك الصباح بالقطار من بعقوبة. ولدهشتي أطلق توفيق ضحكة لئيمة أشبه بالنباح. وحلت محل الانفجار المحطم الغاضب الذي كنت أتحاشاه فيه نكسةٌ من الضحك السخيف.

قال من خلال ضحكاته الحنجرية التي تشبه السعال: «صاحبنا عماد بك، لا بد انه مجنون. مجنون لاعتقاده ان عليه أن يعذب فتاة مسكينة ليرضيني، مجنون لتحويله، ما أخذت أنا باستخفاف، إلى تلك الصورة القاتمة. هناك عليالأقل ست فتيات في بغداد أستطيع الزواج من أيهن هذا اليوم بالذات، وبدون اللجوء إلى وسائل آبائهن القسرية. أكثرهن طبعاً يردن الحب، الحب، وأنت تعرف رأيي بهذا الداء الغربي. سيطالبنك فيما بعد بروحك، وبكل دقيقة من حياتك. إذهب وقل لسلافة إن توفيق رجل شريف. إنه يريد من زوجته أن تكون مستديرة الوجه، ضخمة العجيزة، ولا خيالات عندها عن الحب. قل لها، إن أردت، إنني أريد شيئاً شبيهاً بأنيتا، فتاة المتروبول. شريطة أن تكون عذراء طبعاً». وتوقف، ثم أضاف بحدة غير متوقعة: «ولك أن تقول لها أيضاً انني أقرف من العائلات التي تشبه عائلتها، العائلات التي تفخر بممتلكات لا يعرف أحد كيف حصلت عليها. العائلات التي لعضلاتها قوّة الهلام ونظافة عقولها لا تعدو نظافة مجاري شارع الرشيد. العائلات التي تفسر بخبث كل قانون في البلد لمنفعتها الخاصة». لم يعد في صوته أي أثر للضحك. وكان قد وصل الباب حين تابع كلامه: «قل لها انني سأعيش حتى أراهم جميعاً وقد حاق بهم الدمار، حتى أرى جنسهم الأعجف المخنث وقد أمّحى عن وجه البسيطة، في الوقت الذي لن يعيش فيه سوى أولئك الذين يعيشون بقوة اللحم والعظام الشريفة. ولأكن صريحاً معك يا جميل، لو كانت سلافة من أقربائي لشعرب بأن من واجبي أن أمزق بطنها بالسكين بسبب هذه الفعلة».

– «إذن، يسعدني انها ليست من أقربائك. أتعلم لماذا طلبتُ منك الحصول على مسدس»؟

فتوقف توفيق عند الباب وقال: «كي تعطيها إياه»؟

– «كانت مصممة على قتلك إن أنت أصررت على الزواج منها».

فاستدار ورفع ذراعيه بحركة باذخة، وهبَّ نحوي بعباءته التي طارت حوله كجناحين عظيمين، وأخذني بين ذراعيه وقبَّل خدي: «قل لها إنني أحبها. فالفتاة التي تفكر بقتلي لا بد انها أعظم جائزة في البلاد! تخلَّ عن دينك يا جميل وتزوجها»!

– «يجب أن أعترف انك تدهشني».

– «أسرع بالعودة إلى الفتاة. تمسَّك بها. ولكن احتفظ بالمسدس على مقربة منك. فلا بد أن يريك أحدهم نجوم الظهر».

فقلت وقد طغى عليّ الرجل: «أتعرف ان فيك علائم الرجل العظيم»؟

– «المروءة، يا جميل، أعظم شيم رجل البادية».

– ٢٦ –

عدت إلى الشقة كوسيط السلم الذي حالفه النجاح، سعيداً بما حققت، فخوراً بحنكتي ولباقتي. كان كل ما في سيارة الأجرة ساخناً يكوي، والشمس تنصبّ على المدينة حاقدة لاهبة، لكن غبطتي زادتني قلقاً وعجزاً عن الجلوس بهدوء، فضلاً عما سببه لي المقعد اللاهب والإشعاع الناريّ الآتي من طن المعدن الذي صنعت منه السيارة. وعندما دفعت بوابة البيت الحديدية ذات الصرير، أصخت السمع لالتقاط أي صوت يأتي من الداخل. لم أسمع شيئاً. أدرت المفتاح وانتفض مزلاج القفل، ومع ذلك لم يصدر أي صوت من الداخل. ولكي أجعل دخولي مسموعاً على أفضل ما يمكن دفعت الباب بقوة ثم صفقته، إلا انني لم أسمع شيئاً باستثناء طنين المروحة السقفية المستديم. كان البيت مهجوراً. بل فاحت منه رائحة الإهمال، كما لو أن التفسخ أخذ يدب فيه بشكل غامض قبل وصولي مباشرة. جلت في أنحاء البيت، وفتحت كل الأبواب، وفتشت كل الزوايا. شعرت بأنني وقعت ضحية لخديعة ما. كانت أرضية الحمام، في الأجزاء المحاذية للمغطس الذي تدلّى من فوقه أنبوب الدوش، مبللة بالماء. وكانت بعض قطرات الماء ما تزال تلتمع على ميناء المغطس. وخطر لي أن سلافة قد أخذت دوشاً قبل قليل، وكان ذلك هو الدليل الوحيد على ان شخصاً ما كان هناك. ولولاه لأمكن أن يكون ذلك كله مجرد حلم، بدعة ابتدعها ذهن مكبوت. وتحولت غبطتي إلى غضب، ثم إلى قرف.

كيف أُقنعت سلافة بمغادرة البيت بينما كان المفروض أن أعود بتوفيق للإعلان عن تنازله النهائي؟ هل وصل أبوها خلال ذلك ونقلها إلى البيت المخنوق بالورود على دجلة، ليقرأ عليها درساً آخر في واجبات الأبناء وطاعتهم؟ انكفأت وجهاً، والعرق يتصبب من كل أجزاء جسمي، على الأريكة المحاذية للجدار، فتلقّى حلقي هبَّةً من الغبار الذي تصاعد من المقعد المهلهل لعهد طويل. قلت لنفسي: «ما أشد براءتك. براءتك تصل حد الغباء. خُيّل إليك أنك تُعِدُّ واحداً من تلك المشاهد الدرامية التي تختتم بها المسرحيات، والتي يجمع فيها الأشخاص كلهم من أجل انفراج سعيد، من أجل حل لأزمة صراع يتفق وغرضك.. أولاً يتخلى عنك توفيق. يستسلم حتى قبل بدء المعركة، ويقبك قبلة وداع، ثم تظهر سلمى مع عماد الساخط وتختطف بطلتك. وفي هذه الأثناء يتضوّر عدنان في عالم آخر. أما أنت فيتركونك وحدك في بيت هو ليس بيتك حتى إن لمستَ ذلك التلفون مرة ثانية، كنت أسخف إنسان حيّ. إبلع الغبار، وامسح عرقك، وأفرغ حبك في المجرى، وجامع امرأة في الأربعين كلما اشتهت، وتأمل أليس ذلك أنفع لك وأجدى، وأنت ميّت بين الأموات.



عندما سمعت سيارة تقف خارج البوابة أيقنت انها سلمى. فتحتث الباب فأسرعتْ بالدخول بوجهها المتقع المطليّ بلا عناية. وكان ثمة خيط من العرق حول عنقها ينحدر بين ثدييها.

قلت: «أخيراً! أين سلافة»؟

فصاحت بصوت مبحوح: «ماذا تحاول أن تفعل»؟ كان منخاراها متورمين وعيناها بلا ألق: «هل تريد قتل الرجل»؟

– «ماذا فعلت بسلافة»؟

– «أخذتها إلى البيت».

– «بهذه البساطة».

– «أبوها يعاني من نوبة».

فقلت، غير متأثر: «يؤسفني سماع هذا الخبر».

– «بعد أن تلفنت أنت بوقت قليل تلفنتْ أمها من بعقوبة. كانا قد اكتشفا هرب سلافة لتوهما: وبدا عماد على وشك الانهيار، فأكدت لها أن سلافة عندي في البيت ونصحتها أن تبقي عماد في مكانه. إلا ان صوته جاء مباشرة على التلفون. كان صوتاً مهدماً يستحيل تمييزه. قال انهما سيعودان إلى بغداد على الفور، فرجوته أن يهدأ بالاً وأن يعود إلى السرير. إلا انه رفض الإصغاء إليّ. لذا جئت هنا بسرعة فائقة، ووجدت سلافة لوحدها».

– «وبطبيعة الحال تفطّر فؤادها حزناً حين أخبرتها».

فنظرت إليّ نظرة غاضبة. وقالت: «أنت فاسد، شرير، قاس. لا تقل عن غيرك فساداً. كيف ترفض سلافة أن تذهب معي بينما قد يكون أبوها في النزع الأخير»؟

– «هكذا جاءا ووجدا ابنتهما في بيتك».

– «نعم».

– «وبنبلك المعهود لم تخبريهما أنها أتت إليّ أولا».

– «ذهبوا إلى بيتهم الآن. استدعينا الدكتور زيد القمري ليفحص أبا سلافة».

– «لا شجار، لا خلاف»؟

– «اسمع. لن أظل هنا دقيقة واحدة ما دمت هكذا. مع السلامة».

– «لحظة يا سلمى. هذا مفتاح البيت، رمز عاري، كما لك أن تقولي. ولعنني الله إن كنت أعرف كيف أفسر أمره لسلافة في المستقبل. لك أن تقولي لها على انفراد أن توفيق الخلف يبعث لها أجمل تحياته وانه سيبحث عن زوجة غيرها».

تناولت المفتاح وصعّدت عينيها نحو عيني وهي مطبقة الشفتين. ثم خرجتْ، وتبعتُ.

قالت وهي تركب سيارتها: «هل أوصلك»؟

قلت: «لا، شكراً».

– ٢٨ – من يوميات عدنان طالب

ذلك اليوم كنا أنا وحسين قد خرجنا من السجن. جلسنا معاً في الكازينو الذي اعتدنا ارتياده على دجلة وكتبنا قصيدتنا الوداعية، رسالتنا المشتركة إلى العالم، رسالتنا التي اجتررناها خلال ساعات حبسنا التي لا نهاية لها.

لم نكن نريد المماطلة، لذا قررنا القيام بفعلتنا تلك الليلة.

سألت: «هل تريد الكتابة لأحد على وجه التعيين»؟

– فقال حسين: «أبداً». وبعد لحظات من الصمت أضاف: «لكنني أرغب في كتابة كلمتين لبرايان ؟ إلى انكليزي، من دون الناس جميعا! أنا متأكد أنه سيحزن كثيراً حين يسمع بالخبر».

قلت: «أما أنا فأريد الكتابة لجميل».

– «أعرف. كي يخبر سلافة».

– «كي يخبر سلمى. لكن هذه سخافات. لن نكتب لأحد».

– «لكن يجب أن نتأكد من أن قصيدتنا ستظهر وتنتشر. لعنة الله عليّ إن كنت سأنهي حياتي دون أن أُعلِم المدينة كلها بالخبر. ولما كنت أعرف الشرطة معرفة وثيقة فأنا متأكد انهم سيفعلون كل ما يستطيعون لمنع نشر القصيدة. أليس ذلك فظيعاً؟ لا يعطونك ما تستحقه من التقدير حتى على انتحارك».

– «فلنذهب إلى غرفتي. سنكتب رسالة الوداع على ورقة كبيرة ونلصقها على الحائط. لا بد أن يكتشفها أحد، عاجلاً أو آجلاً».

كنت في سلام مع نفسي والعالم أجمع. وشعرت أخيراً حين نظرت إلى الناس من حولي أن لا خصومة لي مع أحد لأنني نويت قتل نفسي نتيجة إحساسي بالخيبة واللاجدوى، نتيجة عجزي عن طبع حياتي على كيان المدينة التي أحببت. وموتي لن يكون أحتجاجاً بل إعلاناً عن اللاجدوى.

كان الكازينو الصيف مليئاً كعادته بالرجال المحترّين المتعبين، فاقدي الصبر بانتظار منتصف الليل الذي سيأتي معه بشيء من النسيم البارد. رمينا أربعين فلساً في صينية الرجل الموكل بالحساب وخرجنا إلى الشارع. وعلى طول النهر كانت الخيوط الطويلة من الأضواء الملونة تتأرجح بلطف فوق المقاهي المكتظة التي فاضت مناضدها من على الضفة نحو الأسفل، حتى البقاع الجافة من مجرى النهر. وفكرت ان سُمَّنا الكِنائي لم يكن كافياً كي يشربوا موتهم فيه جميعهم، ولكنهم سيعلمون على الأقل أن عدنان طالب وحسين عبد الأمير قد رأيا من المناسب، خلال بحثهما عن الحياة والحرية، أن يموتا يحدوهما الأمل في أن يتطلّع غيرهما أيضاً إلى الموت حين تغريهم حياتهم بالقيام ببحث مماثل.

قلت: «الماء شديد الانخفاض».

فقال حسين: «أعرف أجزاء ما يزال الماء فيها على عمق كثير».

– «أفضل شيء هو أن نقفز من منتصف الجسر، فلا بد أن نسقط في مكان عميق من هناك».

– «ونجلب انتباه الناس لنا؟ لو فعلنا ذلك لأتى الشرطة الذين يدسون أنوفهم في كل شيء واستخرجونا وأعادونا للحياة – لأسرّة فندق «نبقة الفجر».

– كانت غرفتي كالفرن. وعندما استخرجت ورقتين من الحجم الكبير كان عرقي يمطر من خدّي. ونقلت قصيدتنا المشتركة على عجل ثم كتبت بحروف كبيرة في أعلى الورقة: «إلى من نخلّفهم وراءنا».

– «ألصقت «الرسالة» على الحائط فوق سريري ببعض الدبابيس، ولم أقفل الباب عندما خرجنا. نزلنا الدرج واتجهنا إلى الزقاق الضيق الذي فاحت روائحه الكريهة ونبضت حرارته».

في الزقاق الحار الراكد. كانت الأضواء تبعد عن بعضها بعداً جعل الظلام يسود تماماً. قال حسين: «عدنان، كيف تشعر»؟

– «ماذا»؟

– «أقصد... وأنت تسير نحو مصيرك دون فجر يطلع على ليلك»؟

– «أظنه الشعور بالهزيمة».

– «أما أنا فأشعر بالشهوة للمرأة. امرأة ضخمة شهية بفخذين مليئين وردفين ثقيلين. حلمت طول حياتي بمضاجعة فتاة من فتيات الكليات تكون هشَّةً نحيفة الخصر، وتحدثني، وأنا أحرقها بقبلي، عن الحب بالفصحى، بلغة الشعر. أما الآن، الآن الذي لا يحده حدٌّ بَعْدِيٌّ، فأشتهي أن أزرع نفسي في لحم امرأة شهوانية، سمينة الفخذين، تبعثر الضرطات ذات اليمين والشمال، إن حلالها ذلك، وهي تحتي».

– «إذاً فعليك ببديعة في الزقاق التالي».

– «هل تمانع بالذهاب إلى هناك»؟

كان ثمة ممر ضيق طويل يؤدي إلى الزقاق الذي يقع فيه بيت بديعة. وفاح الممر بروائح الغائط على طوله. وعندما انسلَّ رجل قادم بالاتجاه المعاكس إزاءنا بدا وكأنه قاتل متنكّر.

انفتح باب داخلي وجاءت بديعة فارعة القوام، كبيرة الصدر، واسعة العينين، وصاحت بمرح: «هلا، هلا بالشعّارين الشباب».

فقال حسين: «شعراء يا قحبة».

فأجابته: «شِنو الفرق؟ شلونك قلبي»؟ ثم وجهت كلامها إليّ: «عنده أحلى زوج عيون ببغداد».

فسُرَّ حسين وقال: «يلّلا، يلّلا». وصفع فخذها ثلاث أو أربع صفعات كما لو انها حصان.

فقالت: «يلّلا خش».

لكن حسين خرج على عجل وقال: «هل معك دينار»!

– «لكن ؟» لا يمكن أن يكون قد ضاجع المومس. غير انني أعطيته ديناراً أخذه لها ثم عاد.

قلت: «هل حققت أمنيتك الأخيرة»؟

– «لم أتمكن. لمَ لا تدخل أنت»؟

– «ليس عندي رغبة. فلنذهب».

– «أتمنى أن تلازم أحلام مضاجعة فتيات الكليات الهيفاوات أذهان الرجال بعدنا! ذلك أنظف بكثير».

قلت: «نحن ذاهبان إلى النهر – لآخر مرة». كان حسين قد تقلّص، ولاح كأن رأسه متصل بكتفيه ميكانيكياً».

قال: «ومن هو الآسف؟ اعتدنا في النجف أن نرى الموتى مجلوبين من الهند وإيران في أكياس للدفن في الأرض المباركة: في أكياس. كانوا يبرزون بأشكال جَنِينِيَّةٍ غريبة من توابيت الجنفاص تلك. عشرات منهم كانت تأتي كل يوم. نتن الموت لم يفارقنا أبداً. أيام شبابي الأولى كلها عشتها وسط الجنازات. فمن هو الذي يخشى الموت؟ لم ألمس في حياتي امرأة نظيفة شريفة حتى مجرد لمس، وركبتاي تؤلمانني ألماً لا يطاق».

لم يكن الجسر بعيداً. وعندما وصلنا هناك سمعنا أغاني المغنيات وآهاتهن المعذبة تأتينا من مكبرات الصوت الموجودة في الملاهي الكائنة على جانبي النهر. قلت: «لن نموت بلا نائحات».

لكن الجسر لم يكن مهجوراً تماماً، إذ عندما يقارب الليل الانتصاف يخرج الناس للتمشي بعد يوم طويل متقطع الأنفاس.

قال حسين: «ما أزال أعتقد أن علينا ألا نقفز من هذا المكان. لن يتركونا وشأننا».

ملنا فوق السياج الثقيل. كان الماء يتراقص بآلاف الأضواء. كان حيّاً: كان ناعماً مغرياً مزيناً كأنه امرأة.

قلت: «سننتظر حتى يخلو المكان. لن يستغرق القفز أكثر من لحظة. هل تستطيع السباحة»؟

– «لا».

– «ممتاز».

وقفنا هناك صامتين. كان ذهني خدراً خالياً. أردت فقط أن أموت. أن أتوقف عن الحياة، أن أنتهي.

وجاءت لحظة لم يكن فيها أحد حولنا.

قال: «هيا».

امتطينا سياج الجسر وسقطنا معاً وأقدامنا إلى الأسفل، نحو دجلة. كانت سقطة قصيرة سريعة زادت من حدتها أضواء الشاطئين وهي تتطاير كشظايا القنبلة على عيني وجلدي. وارتفع الماء للقائي كأنه مرآة سوداء انفتحت تستقبلني بين انعكاساتها. وظننتني انني ارتطمت بطين القعر، لكنني طفت ثانية، وابتلعت في طريقي إلى الأعلى قدراً من الماء: «حين تجدوننا مزروعين في الطين أخضرين متفسخين أخضرين متفسخين أخضرين متفسخين...» دارت الكلمات في رأسي إذ راح حافز لا يقاوم يدفعني لأن أحرك ذراعي وأجعل نفسي في وضع أفقي وأبقى عائماً. إلا أن غرغرة مخنوقة تصيح «عدنان»! خرقت دماغي. وصاحت الغرغرة مرة ثانية فنظرت إلى الاتجاه الذي أتت منه ورأيت ذراعاً تكافح، تلطش الماء وهي تمرُّ بي. ثم طفا رأس يكاد يكون على مدى من يدي. وسمعت نفسي أصرخ: «لا.. لا.. لا..» وضربت التيار بذراعين يائستين تحركتا بدفق لاإرادي من الحياة، وعلى الفور عاد جسم حسين إلى الالتصاق بي، مشدوداً، خشبياً، تصدر عنه نترات عصبية لا يمكن التحكم بها. أمسكت رقبته بزاوية ذراعي اليسرى وسحبت بالذراع اليمنى مع مجرى التيار، ثم اتجهت نحو الشاطئ الضحل إلى أن تهالكنا على الطين الأسود. سقط حسين ككومة لا حياة فيها بينما كان عليّ أن أقف وساقاي في الرمل حتى الركبة وأنا أجرّه من ابطيه نحو الشاطئ. وفي ملهى يقع على مبعدة ياردات منا كانت الموسيقى تنبض كالجنونِ فوق رأسي.

أنَّ حسين: «لمَ فعلت ذلك، لمَ»...

فصحت: «إخرس». كنت منهك القوى وكانت رجلاي ملوثتين بالطين. لذا فقد عدت بحذر نحو الماء وطفَّشت برجلي لأزيل عنهما الطين، ثم انحنيت ونظفت ساقيّ وبنطلوني.

صرخ حسين: «فظاعة. فظاعة». وتشنَّج جسمه وغالب الرغبة في التقيؤ ثم تقيأ بعض الماء. وعندما بدأت مغنية الملهى نمرتها الجديدة – كانت أغنية مرحة هذه المرة – زفر صاحبي وانفجر بدموع اختلطت بالقطرات اللامعة على كل وجهه وجسمه. أخذ يبكي بمرارة بينما كنت واقفاً أنْقُطُ ماء، ثم اغرورقت عيناي بدموع كبيرة ساخنة. وشعرت بالدموع وهي تنزلق على خدي وتحفر في الأرض.

قلت: «دعنا نذهب».

قال: «دعني لوحدي. وَلِّ من هنا».

قلت: «عد إلى غرفتي. وسألقاك هناك». ثم صعدت نحو الشاطئ

الجاف. وكنت كلما حركت قدماً أشعر بها تخبص في حذائي. وقدّرت ان قميصي وبنطلوني المبلّلين سيجفان خلال ساعة. كانا باردين، وأحسست بأنهما نظيفان رغم الطين الذي لطخهما ببعض البقع. لكنني شعرت بالحاجة الملحة للجلوس. وبحركة آلية امتدت يدي إلى جيب الردف فاطمأننت: كانت المحفظة في محلها.

سرت بمحاذاة سور الملهى الذي يوازي ضفة النهر، واستدرت عند التقاء طرف الجسر بالضفة واتجهت نحو المدخل. ونظر الرجلان الموكلان بمنضدة النقود، بوجهيهما غير الحليقين اللذين أتلفهما الجدري، نظرا إليّ باحتقار، فقلت: «أبدو مبلّلاً تماماً، ها»؟ وأخرجت روقة مبللة من محفظتي.

فقال أحدهما: «ماذا؟ هل وقعت من الجسر»؟ وضحكا.

قلت: «نعم».

قالا: «مئة وخمسون فلساً». وأخذا الدينار الرطب وأعطياني بقيته قطعاً نقدية مع تذكرة صفراء.

نزعت حذائيَّ ونفضتهما، وإذا بصورة عماد النفوي ترتفع من جحيم ذهني وطينه ورُعبه كأنه حيّة سوداء تحدق في عيني. نفضت حذائي ثانية، الواحد بعد الآخر، وكانت تفوح من جلدهما المبلل رائحة خفيفة. إلا أن عماد ملأ رأسي. لبست حذائي ثانية مع مجيء النادل بكأس شرابي. جرعت الكأس مرة واحدة، وقلت: «هات كأساً أخرى، بل اثنتين، وانسَ الراقصة. أسرع»!

ولاح لي أنه قد مرت دهور قبل أن عاد الغلام. لقد أردت أن أرى عماد. أردت أن أراه على الفور. لم أكن أطيق الانتظار. كان لا بد أن أراه. كان في مخي، في دمي، في أحشائي، وفي كل كياني. نظرت إلى ساعتي: كانت قد وقفت على الثانية عشرة والثلث.

سألت النادل عندما عاد: «ما الساعة»؟

فقال: «الواحدة إلا ربعاً».

– «ممتاز. ليس الوقت متأخراً كثيراً. انتظر».

جرعت كأسَي الوسكي الواحدة بعد الأخرى، ثم أخرجت ديناراً مبللاً آخر ودفعت الحساب.

– وخرجت. كانت ثيابي قد بدأت تجف، ولم يعد شعري ينقط ماءً، وتوقفت قدماي عن الخبص في حذائي. وفي شارع الرشيد كانت الأرصفة وأعمدتها ما تزال تشع حرارتها المخزونة. وألقى عمود بعد عمود ظله عليّ فيما كان عماد يجذبني جذباً نحو بيته في شارع جعفر.

أخيراً وصلت. كانت هناك قطعة نحاسية في الضوء الخافت واضحة بشكل يكفي لقراءة اسمه. دفعت البوابة فانفتحت. وفجأة خشيت أن يكون قد ذهب للنوم على السطح. لكن كان ثمة ضوء في أحد الشبابيك. فامتلأت ثقة بأن عمي ينتظرني خلف ستائر الشباك. سرت قدماً فوق الممر المبلّط، ثم ابتعدت عن المدخل وذهبت إلى الشباك وناديت بصوت منخفض. «عمي عماد»!

فلم يجب. همست ثانية مطلقاً صوتي كالسهم خلال الشباك المغلق والستارة المسدلة: «عمي»!

فجاء صوت من الداخل: «من هذا»؟

فأطلقت سهمي مرة ثانية: «أنا، عدنان».

– «عدنان»؟ كان الصوت صوت عماد يأتي كالزفرة من وراء فلوات الصحراء.

– «نعم، أريد أن أراك».

فأجاب الصوت الواهن: «ليس هذا وقت زيارات».

فقلت بيني وبين نفسي: «هل تساوره الريبة في أنني ملاك الموت»؟

– «افتح الباب يا عمي».

– «دقيقة».

هل يعتزم نداء الخدم؟ لكن صوت خُفَّيْهِ تناهى إليّ وهما ينشحطان نحو الباب الأمامي، ثم تكَّ المزلاج وانفتح الباب. كان عماد واقفاً بالباب يرتدي دشداشة، طويل القامة، منحني الظهر.

قال: «هذا أنت يا عدنان؟ ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟ أنت تعرف انني رجل مريض. الكلّ في البيت نائمون على السطح، وأنا لا أحب أن يزعجني أحد حين أكون لوحدي».

قلت: «هل تسمح لي بالدخول»؟

– «لا بأس. ادخل».

فدخلت. أغلق الباب وسار أمامي إلى مكتبته. وهناك هبّ هواء بارد على وجهي حين دخلت: كانت مجهزة بوحدة لتكييف الهواء.

قال: «تبدو كالجثة المنبعثة ؟ من القبر».

فقلت: «أنا جثة منبعثة حقاً».

– «كان بإمكانك أن تمشط شعرك على الأقل».

– «شعري متلبد جدا».

– «وإن يكن...»

– «لا داعي لأن تقلق على شعري».

– «متى خرجت من السجن»؟

– «فجر هذا الصباح».

فبدا عليه الرضا، وجلس على كرسي مريح، وجلست: «إذاً هذا هو السبب الذي دعاك للمجيء هنا؟ هذا لطف منك. ولكن كان ينبغي أن تتلفن لي حالما خرجت». واستخرج مسبحته من جيبه.

– «ليس هذا ما أتيت من أجله. فأنت لا يهمك ما يحصل لي».

– «ليس هذا صحيحاً يا عدنان. فأنت ابن أخي مهما تكن الأحوال».

– «صدفة تعسة جدا».

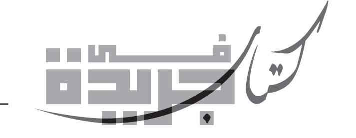
تغير لونه – قليلاً. حدقت في عينيه بحدة وأردت أن أراه يتلوى بينما تخترقه نظرتي. «اسمع يا عدنان، أنا رجل مريض ؟».

– «أعرف انك مريض. حتى حين كنت في ذروة الصحة كنت مريضاً».

فهبَّ واقفاً وسقطت المسبحة على الأرض. «هل أتيت هنا لإهانتي»؟

– «كان يجب أن أفعل هذا قبل وقت طويل، لكنني لن أهينك الآن، بل سأقتلك».

أمسكت رقبته بأصابعين العشرة الصلبة كالمسامير. لكن لم تكن ثمة حاجة لأن أضغط طويلاً. فقد ارتسم على العينين ذعر زجاجي لا يرفّ، ووجدت نفسي أضحك. لقد بدا الشيطان العجوز مثيراً للشفقة في هيئته المذعورة تلك وهو يتكئ للخلف على مقعده المكسوّ بالقماش المقصّب وسط كتبه العتيقة. كانت جثةً ضخمة في قميص نوم حريريّ طويل، يناسب ثروته ومقامه



– ٢٩ –

هذه هي قصة عدنان كما كتبها بنفسه بعد فترة من مراسيم دفن عماد النفوي. أما الصحف فقد قالت أن النفوي مات ميتة هادئة وهو جالس في مقعده في مكتبته، نتيجة سكتة قلبية. وكان معروفاً أنه يعاني من مرض في القلب في السنوات الأخيرة. ولم يشك أحد مطلقاً بوجود أسباب أخرى خفية لوفاته. إلا أن قصة عدنان التي أفضى بها لي في حينه، ثم دونها في يومياته الشخصية، ليست بعيدة الاحتمال.

أثبتت وفاة الرجل مدى نفوذه ومكانته. فقد شارك في الجنائة آلاف الناس، من الوزراء حتى المترزّقين. وقد تم لقائي بعدنان في المقبرة، حيث رأيته بين المشيعين. ولم نستطع الاتصال خلال ذلك الجمهور إلا بصعوبة.

قال: «هل يبهرك ما ترى»؟

قلت: «أراح الله روحه. متى خرجت من السجن»؟

– «قبل يومين. أنا حر ثانية. حر تماماً». كان صوته خالياً من المرح.

قلت: «فلنذهب من هنا».

– «كيف سلافة»؟

– «لا أدري. لم أرها منذ وقت طويلس. ورغم ان حديث التلفون بيننا كان طقساً يومياً، إلا انني لم أرها سوى مرتين بعد عودتها من بعقوبة.

– «لقد راح الشبح. لن أقلق عليها بعد الآن. أنت تحبها، أليس كذلك»؟

– «بالفعل يا عدنان. لا فائدة من الانكار. هل أنت غاضب»؟

– «غاضب يا جميل؟ لكن عليك أن تأخذها من هنا ؟» توقف لحظة. «إذا استطعت».

– «سوف آخذها بعيداً عن هذا المكان ؟ إلى مخيمات اللاجئين».

– «حسناً تفعل. دعها تتخلص من ذلك الـ... تعرف...» ولطم جبهته براحته، «ذلك البؤس الفكري الذي يتلبسها، لتعرف البؤس الجسدي الذي يعاني منه الآخرون».

خلال الأيام القليلة التالية، وبينما كنت أنتظر انتهاء فترة العزاء الأولى عند آل النفوي، رأيت عدنان وحسين عدة مرات. كان حسين قد عاد إلى شعره بحماس شديد، أما عدنان فكان ذاهلاً، برماً، مشغول الذهن. كان يردد: «موت عمي حادث هام. إنه نهاية عهد بأكمله. تصور. أنا ساعدت في وضع حدٍّ لعهد طويلٍ من –» ثم يبدو من شدة اقتناعه بأهمية فعلته بحيث تخونه الكلماتُ. ثم ما يلبث أن يضيف متشككاً: «لعله لم ينتهِ تماماً. لكنني أعرف ان هناك حياة جديدة تتفجر، كما لو ان الصحراء تتحول فجأة إلى جنينة. خضراء بالعشب، حمراء بالزهور. وأنت تعرف أنني غير آسف لما فعلت. هناك على الأقل عشرة آخرون، أود لو أعطيهم نفس الدواء».

أما برايان فلنت، فبعد أن أصبح طلق اللسان بالعربية، بدأ بتعلم العزف على «المطبج»، تلك الآلة الأصيلة العروبة المصنوعة من زوجٍ من القصب. كان منظراً مضحكاً، بل غريباً ومتناقضاً، منظر ذلك الرجل الأشقر الأزرق العينين، خريج جامعة أوكسفورد، وهو ينفخ خدّيه بقوة ليعزف على تلك الآلة كأنه أعرابي في عرس! كنا نجتمع كل ليلة تقريباً ونأخذ برايان معنا في زورق يجري بنا حدر دجلة. ثم نشرب البيرة ونشوي السمك المزقوف في إحدى تلك «الجزرات» العديدة التي ينحسر عنها النهر كل صيف. وكان من عادة برايان أن يعزف على المطبج ويقول: «أليس مدهشاً شبه المطبج بناي الغرب الشائع بين سكان المرتفعات الاسكتلندية»؟ لكن توفيق اختفى ولو لم يكن الطقس حاراً جداً لذهبنا إلى الجنوب لقضاء عدة أيام مع أهله وعشيرته.

عندما تمكنت أخيراً من رؤية سلافة في بيتها أذهلني ما غدت عليه من نحول وشحوب. كانت ترتدي ثوب الحداد الذي عليها أن ترتديه مدة عام كامل. إلا انها كانت ذاوية. وكانت شفتاها، بحمرتهما الطفيفة، وبدون أي طلاء مليئتين ولكن توحيان بالمرض.

– ٣٠ –

كان الحر يعاودنا كل نهار كالحمى اليومية، كالقدر الذي لا مفر منه. لكنني انتظرت. انتظرت خلال الحر، خلال الرتابة الونيئة القاسية لحداد يمضي يوماً بعد يوم.

ثم جاء الفَرَج. جاء سائق الربيضي برسالة إلى شقتي. كانت رسالة قصير مهذبة: «سيكون من دواعي الشرف لي لو تمكنت من اجتزاء ساعة أو ساعتين من وقتك غداً للمجيء وتناول كأس من الشراب معي. سأكون في البيت عند السابعة مساءً. المخلص: أحمد الربيضي». لقد ارتدى الرجل قناعه من أجلي هذه المرة.

وعندما ذهبت مساء اليوم التالي استقبلني على الباب بنفسه. وحدثني عندما ناولني الكأس الأولى، عن سلمى وكيف انها وجدت الحر لا يطاق مما استوجب ذهابها للبنان مدة شهر أو شهرين. ولكنها بدأت تشعر بالوحشة، لذا فإنه سيلتحق بها قريباً.

– كان يمهد للنقطة التي يريد وصولها بعناية كبيرة.

ولما كنت قد ضجرت من تلك الطريقة الملتوية في تناول الموضوع، قلت: «واضح انك تريد الحديث عن سلافة».

– «نعم. يجب أن تتوقف عن التدخل في حياتهاس. كانت لهجته متلطفة بحيث ظهرت كلمة الأمر «توقف» وكأنها دعوة لا تهديد.

– «آسف. أنا أنوي الزواج منها».

– «لا يمكنك ذلك. لم تبلغ سلافة الحادية والعشرين بعد. والقانون بجانب أمها».

– «في هذه الحالة سأنتظر عاماً آخر. ولو انني أكره ذلك».

– «لكنني أستطيع فسخ عقدك مع الكلية في يومين اثنين».

– «لا بأس، افعل ذلك». ووضعت كأسي على المنضدة. فلم أعد أستطيع تقبل ضيافته.

– «هلاّ أخبرتني من فضلك عن علاقتك بفتاة اسمها عزيمة قابلتها في تشرين الأول الماضيس؟ سقط سؤاله كضربة في الظلام على مؤخرة رأسي.

– «عزيمة؟ أية عزيمة»؟ كان ذلك أشد الأسماء خلوّاً من المعنى بالنسبة لي على الاطلاق. كان الأحرى به أن يقول «سلمى»، ولو قال لحاولت أن أجيب. أما عزيمة؟

– «لم يمض وقت طويل جداً على الحادثة، وليس من المعقول أنك نسيت بهذه السرعة».

– «لا أدري عمَّ تتحدث».

– «قتلها أخوها في «فندق المدينة» بسبب علاقة كانت بينك وبينها. قتلت في غرفتك بالفندق».

كان ذلك من الفظاعة بحيث اهتززت غضباً وكدت أختنق بكلماتي: من أين حصلت على هذه القصة؟ فتاة مسكينة لم أرها في حياتي قتلها أخ متوحش على عتبتي. طبقاً لعادة لا يرفع أحد منكم يا ذوي السلطة أصبعاً لإيقافها. ما علاقتي أنا بها؟» ونهضت على قدميّ.

فقال برصانة القاضي وتجرده: «هدئ نفسك. أنا أحاول حامية مصالحك. فهناك دائماً وقت لا بد أن يأتي يتحتم على الشخص فيه أن يفسر أعماله. أنا رأيت القصة في ملفك الشخصي، ومن الممكن أن تضرك كثيراً. سوف تطرد كشخص غير مرغوب فيه. فأنت رجل لا يوثق به فيما يبدو».

– «شكراً على هذه الموعظة».

– «ألم تعظك سلمى لتحثك على شيء من المحبة؟ لماذا لا تكفّ عن التدخل في حياة سلافة»؟

كنت أرتجف بعنف وأنا أتجه نحو الباب، لكن الربيضي كان قد ازرقّ لونه، وبسبب حركة مرتبكة قام بها أوقع كأسه من على المنضدة الصغيرة اللامعة المجاورة للمقعد، فتناثرت قطعاً على الأرض العارية.

وصاح من مقعده، معذّباً: «قوّاد، نغل»!

– ٣١ –

تلك هي الحقيقة. كان الربيضي قد بدأ يسقط. نظام كامل من الأشياء أخذ يسقط. ولعله كان يعلم بأن زوجته تخونه. وأن كل ما تبقى له هو أن يتشبث بشدة، أن يلجأ لكل حيلة، لكل دعوى، لكل كذبة ممكنة. كان ما يزال يتمتع بالسلطة، لكن الصدع فيها كان واسعاً، مهما خدع نفسه بشأنه.

ذهبت مباشرة إلى دار سلافة، فهرعت سلافة التي كانت مع بعض صديقاتها في الحديقة لاستقبالي، وراحت يداها تتحركان حركات عشوائية في غمرة جهلها لما ينبغي أن تفعل، لأن مجيئي كان مفاجأة لها. وقدمتني للفتيات اللواتي ضحكن ضحكات مكتومة من الخجل والحرج، ثم أخذتني إلى غرفة أبيها وشغّلت مكيفة الهواء. أما أنا فقد أغلقت الباب بنفسي وطلبت منها إسدال الستائر. ففعلت.

قلت: «سلافة. أنا أقل الرجال جدارة بالثقة في العالم».

فقالت: «لا تقل ذلك رجاء».

– «وأكثر المحبين غدراً. يجب أن أقول لك ذلك الآن».

– «ماذا حصل لك يا حبيبي»؟ ورمت نفسها عليَّ، فدفعتها بعيداً عني بلطف.

– «دعاني زوج خالتك أحمد هذه الليلة إلى بيته ليقول لي أنه سيطردني من البلد إن لم أتخلَّ عن التدخل في حياتك. لا بد أن أقول لك انني عاشق غادر».

– «لا أهتم، لا أهتم».

– «ألا تريدين أن تسمعي قصة غدري»؟

– «لا. لا أريد. أنا أحبك ؟ مهما فعلت. بل انني سيخيب ظني لو علمت أنك لم تكن لك علاقات حب قبل لقائنا».

– «أنا لا أتكلم عن علاقات حبٍّ قبل لقائنا. أنا أتكلم عن علاقات قامت بعد لقائنا. أنا أتكلم عن غدري».

– «لا، لا، لا. لا أريد أن أسمع. لا أهتم».

– «أما زلت تريدينني»؟

– «كما لم تردك أي امرأة عرفتها من قبل». ثم لفّت ذراعيها حول عنقي. ثم قالت بلهجة استعطاف: «ولكن ألن تظل مخلصاً لي مدة سنة أخرى من العذاب»؟

فقبّلت فمها. قبّلتها قبلة طويلة عنيفة، وأحسست بجسدها رخصاً طرياً تحت ذراعي. ورغم ان القهقهة المخيفة في داخلي كانت ما تزال مجلجلة مجنونة، إلا ان يد ليلى التي نسيتها من زمان بدت وكأنها تسقط فجأة، فوق عيني، كبيرة، ملويّة، ميتة. لكنني قبلت سلافة مرة بعد مرة قبل أن نخرج إلى الحديقة للتحدث مع صديقاتها المنتظرات.

خلال الأشهر الطويلة التي تلت، وبينما كنا ننتظر، وبينما كان أمثال عدنان وحسين وتوفيق يقذفون بأنفسهم على صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية، كانت الحدآت والغربان تطير أسراباً ناعقة فوق غياض النخيل التي تعمر أرضاً تتجدد ببطء يوماً بعد يوم.